عل رغم كل ذلك ، يقول هوفت ، ليس للالزاس لغة . ليس للالزاس اديب . وهو يقصد باللغة البيان الممتاز . البلاغة الخلاقة . الفصاحة المبدعة . لا تطبيق القواعد بصورة قاموسية مضبوطة . ويقصد بالاديب ذلك المفكر العملاق ، الذي يخلق بقلمه المروس تاريخاً لامته ، ويعكس تاريخ امته . ذلك الذي يكون ادبه اكثر من لغة صحيحة . هذه اللغة المدهشة ، وهذا الاديب الفطحل ، لم تعطهما الالزاس في اللغة الافرنسية . ولن تعرفهما ما دامت عبقريتها منقسمة بين حساسية المانية وذهنية افرنسية .

ان الذين كتبوا بلغة المانية (اي الذين تبنوا الالمانية لغة ام لهم) كان لهم حظ وافر من الخلود في تاريخ ادب الامة الالمانية . لانهم حافظوا على فطرة الحساسية التي هي المانية . اذا فتحنا تاريخ الادب الالماني رأينا عدداً لا يستهان به من الكتبة الالزاسيانيين . اما في الادب الافرنسي فلا ذكر البتة لاسم كاتب الزاسياني واحد . اللغة القومية لا تضاف من الخارج الى اللسان . انها امتشاق صادق من صماصيم الحساسية عينها . بل هي الحساسية ذاتها مكلمنة في الفاظ تعكس بامانة محرور العاطفة .

تلك هي المأساة التي تعيشها الالزاس . وقد صورها لنا فريدريك هوفت بدقة فائقة في التحليل والتخريج مما يدل على ان اللغة القومية لا تسلق سلقاً [1] . لا تطبخ حسب مشيئة القوى المستعمرة . لا تفبرك بصورة اصطناعية . لا تركب تركيباً سكونياً . للغة القومية جذور حنجرية في لسان الشعب . تنبثق من حساسية هذا الشعب ،

---

١) راجع كتاب La Psychanalyse de l'Alsace بقلم Frédéric Hoffet
فصل Le Drame Culturel

الذي يتكلمها وجودياً، مثلما تنبثق من ذهنيته. كما في حياة الفرد كذلك في حياة الشعوب. الشخصية الكاملة هي في زواج العقل والقلب معاً.

يبقى، بعد هذا كله، ان نجلي امراً خطيراً. ان العصر الذي نعيش فيه يوجب على الانسان ان يتعلم عدة السنة. اذ لم يعد بمقدور الانسان ان يعتزل المجتمعات التي تحيط به. لقد قرب الحديدُ جميعَ الابعاد. فأخذت الشعوب تتماس شيئاً فشيئاً مما يجبر الانسان على التكلم باكثر من لغته الام. هذا العمل كبير الفائدة. لانه يزيل احياناً سبب العدوان، فيما بين الشعوب، كما يقرب الافئدة بعضها الى بعض، ويقيم التفاهم بين العقول. قال برغسون:

ان من يتقن لسان شعب، ويتعرف الى ادبه، لا يستطيع ان يكون عدوه تماماً. وهو امر ينبغي الا ننساه، عندما نطلب من التربية، ان تمهد السبيل الى التفاهم بين الامم. فاتقان لسان اجنبي باسلوب يجعل من الممكن ان تتشرب روحنا ادب هذا اللسان وحضارته ... هذا الاتقان، قلت، يستطيع ان يهدم دفعة واحدة سوء الظن، الذي حاكته الطبيعة ضد الاجنبي عموماً (١).

رأي برغسون لصائب. ونحن لا نسمح لذاتنا ان نجهل الفوائد الجمة التي يجنيها المرء من الاطلاع بدقة على الالسنة الاجنبية. لقد ثبت عندنا ثبوتاً لا يقبل الشك فيه، ان تعدد الالسنة يزيد ثقافة الانسان، لانه يفتح في نفسه شبابيك عدة، يطل منها الفكر على آفاق متنوعة الالوان. نضيف الى ذلك ان تعلم الانسان السنة اجنبية يعينه كثيراً على فهم لغته الام ذاتها بطريقة اصح. فما من احد جلس على مقاعد الجامعات الاجنبية، ونهل من علومها، يجرؤ على نكران هذه الفوائد الجمة، من حيث الفكر والخلق. ان شعباً لا يتكلم السنة اجنبية هو

---

(١) راجع كتابه Les Deux Sources de la Morale et de la Religion ص ٣٠٩ Alcan ١٩٤٣.

شعب عاجز عن ان يدرك ابعاد لسانه ذاته ادراكاً صحيحاً .

لاعجب . الشعوب تسير كلها نحو فكرة الوحدة الانسانية . الانسانية واحدة لأن الانسان واحد في الجوهر . ما كان يتغنى به الفيلسوف «كانت» من ايجاد جمعية عامة للامم المتحدة اصبح في الوقت الحاضر وجوداً واقعياً . لقد صارت السياسة الخارجية ، في الدولة ، هي التي توجه الشؤون الداخلية . من هنا الانطلاق ، اليوم ، نحو ما هو ابعد من حدود الوطن . لذا كانت ضرورة الاطلاع على الالسنة الاجنبية .

لكن هذا الاطلاع ، على الالسنة الاجنبية ، يجب ان يمارس برفق وحذر . له شرط اساسي يقوم ، اولاً وآخراً ، على اعطاء اللغة القومية الاسبقية والسيادة . الالسنة الاجنبية ليست معادلة لها من حيث القيمة في الاداء . اللغة القومية وحدها تبصِّرنا بانفسنا . وحدها تكفل لالمعية الشعب ، واريحته ، ان تدركا فلك الابداع .

اجل ! ان الانسان قادر ، بل واجب عليه ، ان يسوح في كل السنة الارض، قراءةً وكتابةً . لكن الخلق الممتاز ، في النتاج العالي ، لا يحصل الا في اللغة الام . بها نتمخض وبها نضع . ذلك لاننا عاجزون عن ان نتبلد غيرها . هي وحدها القادرة على ان تعبر عما اكتن من الحقائق البعيدة في وجداننا . هي وحدها التي تجيز لنا ان نبتدع للامة شخصيةً فكريةً جبارةً عبر الزمن . لذا وجب على كل انسان يحترم ذاته ، وعلى كل شعب يريد استقلاله ، ان يحتفظ بلغته القومية . وان يفهمها ، ليس فقط فهماً قاموسياً يتناول معطياتها الشكلية المباشرة ، بل فهماً فلسفياً يتناول معطياتها المعنوية ، الغائرة في بطن تاريخه ، الذي تكشفه لنا .

ان الدفاع عن اللغة القومية هو دفاع عن ادق ما في وجدان الامة.

هو دفاع عن التاريخ الذي ينتسب اليه المرء . عن كيانه المجتمعي الذي بدونه لا يدرك الشخصية الكاملة . هو دفاع عن عفاف ذهنية الامة . اما الاعتقاد ان الشعور بالانسانية الواحدة يستلزم الشعور بواجب وجود لغة واحدة فهو جهل بجبلة الانسان التي لا تتطور وفق خط افقي مستقيم . هي بنت الحركة الجدلية المتراوحة بين ضدين متلازمين. الذي يطلب السماء يطلب الارض والا خسر الاثنين معاً .

لا نعتقد ان هناك شيئاً ، كاللغة الام ، يعين الانسان على التحكم في سير الزمان . الكلمة الام هي الشهادة الاولى الوحيدة على ان كاتبها من اصناف الالهة . قد يكتب الانسان ، بدافع من الترف الثقافي ، في لسان غير لغته الام . لكن الخلود الحق لن يكتب له الا في اللغة الام . وما يقال في الانسان الفرد يقال في الامة ايضاً . ان الامة التي لا تعبر بقوة وابتكار ، في لغة ام واحدة ، عما تريد ان تكون ، هذه الامة لاتستطيع ان تكون ما تريد . الامة العظيمة كالشاعر العظيم تحترم لغتها الام التي تعبر فيها بانشاء خلاق عن كل ما يختلج في لاوعيها . الثقافة العالية هي ، آخر الامر ، قضية اسلوب . وهل الاسلوب او الانشاء الا الانسان عينه ؟ حقيقة الانسان تنحصر كلها في الكلمة التي يخرجها . لذا كانت الضرورة القصوى تفرض على الامة الواعية ، كما تفرض على الشاعر الخلاق ، ان يكون لها اسلوب انشائي خاص بها ، تعبر فيه عن ادق المعاني الفلسفية . هذا الاسلوب الانشائي الخلاّق لا يمكن الحصول عليه الا في اللغة الام .

لا وجود للغة ام واحدة ، لكل الشعوب ، تقضي على اللغات القومية جمعاء. هذا الحلم راود الكثيرين من لغويي العصور الماضية وفلاسفتها . حسبنا ذكر الفيلسوف الالماني ليبنتز واضع علم اللغة الحديث . لقد جاهد ومن قبله ديكارت في سبيل ايجاد لغة واحدة

لجميع الشعوب . كان همهما ان يريحا البشر من تعدد اللغات الذي يسبب في نظرهما سوء التفاهم بين الامم .

هؤلاء المثاليون ، او الجوهريون ، يجهلون الحركة الجدلية ، المركوزة في صلب كياننا . ان الانسانية الواحدة ، التي تغنوا بها ، هي فكرة خاوية خالية. على من يريدها ، ارادةً واعيةً ، ان يزاوج بينها وبين القومية . من هنا فشل جميع المحاولات ، في سبيل انشاء لغة دولية ، تقوم مقام الالسنة . استقلال الشعب يقضي بأن تكون لغته الام سائدة بالتمام . لهذا كانت الشعوب الحاكمة تسارع الى القضاء على لغات الشعوب المحكومة . متى تناول الحاكمُ المحكومَ من لسانه ، تناوله من فكره ايضاً ، فكان التغلب عليه .

لا بد لنا هنا من ان نمثل في هذا المجال . ولانجد مثالاً على ذلك اروع من محاكمة انطون سعادة على اثر اتهامه بانشاء حزب سياسي . قبض عليه ، يومذاك ، وسيق الى المحاكمة . هنا ، نسرد الحادثة كما وردت بالحرف الواحد ، في «النظام الجديد» . المكان المحكمة المختلطة برئاسة الفرنسي روسيه. الزمان ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٦. قال النظام :

... ورفع الرئيس رأسه عن الاوراق ، وقد امسك بيده بعضها ، ونادى : انطوان سعاده ... فلم يجب احد . فكرر المناداة : انطوان سعاده ... فلم يكن جواب ... وصار الناس يلتفتون ويتساءلون .. والذين كانوا يعرفون سعاده صاروا يوجهون اليه نظراً فاحصاً او حائراً ... والتفت المحاميان فرنجيه وابو شهلا الى سعاده وقالاله : الرئيس يناديك ... فأجابهما سعاده بهدوء : لم أسمع الرئيس يذكر اسمي ... ولاحظ الرئيس حديث المحاميين مع سعاده ، فسأل مستوضحاً ، فأجابه ابو شهلا : انه حاضر ، ولكنه لا يجيب لانه يقول انه لم ينادَ باسمه .. فسأل الرئيس : ما اسمه ؟ فقال سعاده

للمحامي ليبلغ الرئيس : اسمي انطون سعاده .. فنظر الرئيس في وجه سعاده الهادىء ، ثم امر الكاتب بتصحيح الاسم ، وصدرت المناداة من جديد : انطون سعاده ؟

فنهض سعادة واجاب : حاضر !

سأل الرئيس سعاده : هل تفهم الفرنسية ؟ فأجاب سعادة : نعم . فاخذ الرئيس يشرح قضية الحزب بالاستناد الى التقارير والوثائق التي بين يديه ...

... ولما فرغ الرئيس من شرحه وتهمه ، جاء دور دفاع سعاده عن نفسه وحزبه ، فسأل الرئيس سعاده : هل تريد التكلم بالفرنسية ؟ فاجاب سعاده : سأتكلم بلغتي القومية . فطلب اليه الرئيس ان يتكلم باللغة الفرنسية لانه يحسنها ، فقال سعاده ان الموضوع دقيق ، وتمكني من لغتي القومية يجعلني اقدر على التعبير عن رأيي بدقة ارتجالا . فألح الرئيس على سعاده بان يتكلم بالفرنسية ، فأجابه سعاده :

«حضرة الرئيس ، اني سوري وفي بلادي . واني اقود حركة تحريرية ترمي الى اقامة السيادة القومية وجعلها مطلقة ، فلست اقبل ان احمل على الكلام في بلادي بغير لغتي .»

... وهكذا كان !

هذه هي المحاكمة ، التي حدثت لانطون سعادة ، زعيم الحزب القومي الاجتماعي . وهي عندنا من اقوى الادلة على ان للقلب الواحد لساناً واحداً لا يقبل له بديلاً للتعبير الكامل عن كتمات وجدانه . انه المتسلل الاوفق الى عالم الفكر المطلق .

لا نريد ان نأخذ من هذا الموقف ، لانطون سعاده ، الا ما يزيد الاضواء على خطورة اللغة الام . لذلك لا نتساءل عما اذا كان هذا

الموقف ، الذي وقفه سعاده ، يتفق تماماً مع مجمل آرائه في اللغة[1]. المهم ، عندنا ، انه عاش حتمية اللغة القومية . عاشها في فترة لا يمكن فيها للانسان الا ان يكون صادقاً . عاشها لحماً ودماً . وخلف لنا امثولة لغوية قومية انسانية .

لقد وقف سعاده ، في محاكمته ، وقفة تجلت فيها ضخامة اللغة الام . برزت سطوتها على الفكر . بانت كينونيتها الكامنة حتى في خطوط حروفها . اتضحت امومتها ، التي تحتضن الوجدان بامانة ، في المواقف الحاسمة . هي لا سواها تحوش مطلق الاندفاعات الذاهبة من الباطن . هي لا سواها تعانق اطراف كياننا . تستقطب اقاصينا . تفجر الالغام المركوزة في اعماقنا . تجوهر وجودنا . وتوجد جوهرنا .

سنترك ما اعطاه سعاده في السياسة التي لا نقرها . نترك زعيم الحزب ، لنتجه راساً الى ما في المحاكمة من وشائج تربطها بفلسفة اللغة الام ، التي ندافع عنها . غايتنا في هذا المجال ان نقرر حقيقة علمية صافية . وقد رأينا ، في موقف سعاده ، ما يمثّل على هذه الحقيقة . فأوردنا المحاكمة معزولة عن باقي نشاطه السياسي .

رفع الرئيس روسيه رأسه عن الاوراق ونادى للمرة الاولى : انطوان سعاده . فلم يكن جواب . كرر المناداة فلم يكن جواب . وبعد أخذ ورد علم الرئيس الفرنسي ان سعاده حاضر . لكنه لا يجيب لانه لم يناد باسمه . حينئذ نادى : انطون سعاده . فنهض المتهم واجاب : حاضر . رب معترض يقول : وما الفرق بين انطوان وانطون ؟ أيكون حرف الالف على تلك الاهمية من الخطورة بحيث يدفع بسعاده الى مقاطعة المحاكمة ؟ اما دل الاسمان على الشخص

---

١) ترامى لنا ان اراء سعادة الاجمالية تعتبر اللغة واسطة لا غاية .

ذاته ؟ الم يعرف سعاده ان المنادى هو بالذات ؟ لقد ادت إذن كلمة انطوان رسالتها من الدلالة . عبرت عن الذي تريد ان تدل اليه .

ظاهراً ، لا فرق بين الاسمين . لا اختلاف بين انطون وانطوان . هذا اذا اعطينا اللغة مفهوماً سكونياً . اذا فهمناها فهماً قاموسياً يجعلنا ننظر اليها كمجموعة فسيفسائية من الألفاظ المخلعة . في هذا الضوء يمكننا اقرار فارق واضح بين المعنى والمبنى . يمكننا رسم خط ظاهر بين الفكر من جهة والعبارة من جهة اخرى . هكذا ، لا يعود من فاصل مبين ، بين انطوان وانطون ، ما دامت الكلمات مصطلحات ، اي واسطات نستخدمها في سبيل غاية . والغاية غير الواسطة . اذن لا مانع من ان تتغير الواسطة . من ان تتحور لانها وضع متواطأ عليه .

لكن اللغة اكثر من واسطة . انها غاية شرط ان نفهمها فهماً ديناميا . هي ليست اجزاء تتركب ، فيما بينها ، بصورة اصطلاحية . هذا فهم موميائي لها وتحديد جامد لحياتها . اللغة اصوات في حروف ، وحروف في كلمات ، وكلمات في جمل ، وجمل في نحو ، ونحو في بيان . والبيان وحدة لا تتجزأ . هو الانسان ، رمةً ، في افكاره ومشاعره . والانسان كائن مجتمعي . واللغة تعكس هذا الانسان . عليها اذن ان تعكس حياة امته في مظهريها النفسي والمادي . هي وحدها المؤتمنة على تاريخه البعيد لانها ليست كمّ الفاظ قاموسية . كلمة انطوان لم تعبر عن احتياجات سعاده النفسية واشتياقاته القومية . القضية اكثر من حرف ناقص أو حرف زائد. اكثر من حرف الالف . القضية في وحدة الكلمة ، التي هي انطون ، وفي ما تجره خلفها من صور شعرية ، وآمال نفسية ، ومجار فكرية .

كلمة «انطوان» عملة مزيفة . لم تصبّ في مسابك الامة . فلم تمس الاسلاك الكهربائية التي كانت تشتبك في وجدان سعاده . لهذا

لم يشعر عندما سمع كلمة «انطوان» بانه في مجاله المعنوي . من هنا عدم اجابته رغم حضوره . قال : لم ينادَ باسمي . اجل ! لم ينادَ باسمه . كأني بالاسم اكثر من تقطيع صوتي ، وحروف ملزوزة بعضها الى بعض ، ونبرات تسمعها الاذن . الاسم يحمل كياناً معنوياً لا ينفصل عن كيانه اللغوي . وعندما امر الرئيس الكاتبَ بتصحيح الاسم ، ثم صدرت المناداة من جديد «انطون سعاده» نهض اذ ذاك واجاب : حاضر . لقد عادت الاسلاك الى مجاريها الحقيقية فعاد الالتحام بين الكيانين المعنوي واللغوي .

اعادت الالفُ الوصلةَ بين سعاده ومجاله المعنوي . اعادت كهربائية الحياة ، في وجدانه ، فحضرت واعيته ، وامتثلت . اذ ذاك بدأت المحاكمة . بدأت بين ذهنيتين تصرفت كل منهما تصرفاً خاصاً حيال اللغة . الاولى ذهنية المتهِم ، الثانية ذهنية المتهَم . الاولى تنظر الى اللغة نظرة سكونية ، فلا يهمها الفارق بين انطوان وانطون . اللغة عندها واسطة . الثانية عاشت اللغة حقيقة دينامية ، فلم تهوّن خطر الالف بين انطوان وانطون . عاشت اللغة غاية . القضية لدى روسيه قضية حرف . القضية لدى سعاده قضية مجال معنوي .

السبب ؟ لقد سبقت اللغةُ العربيةُ باقي اللغات الى لسان سعاده ، وترسخت فيه ، حتى صار من حقها ان تطالب بالاسبقية والفوقية . اندمجت منذ البدء بسويقات وجدانه ، واختلطت لحمياً بحنجرته ، وتداخلت في كرياته الدموية ، فلم يعد من فاصل بينها وبين اعمق الشواعر ، التي كانت تعتلج بها نفسه . اصبحت العربية مركوزة في شرشه الاصيل . غدت حشاشة قلبه ونفناف عقله .

قيل انه كان مطلعاً على عدة لغات اجنبية . وقيل انه كان يديرها ، على لسانه ، بسهولة ممتازة . لا شك في ان امتلاك سعاده

عدة لغات قد ساعد على ازدهار شخصيته وتكثير كنوزه الفكرية . وبما كان لها بعض الفضل في تزويد لغته القومية ابعاداً من الفكر المجلي . لكن هذا لا يعني أنها سلبت امومة اللغة العربية ، وفوقيتها، في المواقف الحاسمة .

الرابطة الرحمية ، التي اقامتها الحياة ، بينه وبين العربية ، سدت النافذة على كل امكانية ارتجال ، في لغة اجنبية . ارتجال تلتحم به قوى الفكر واللسان في بيان بليغ فصيح . ان الارتجال ، الذي كان يتوخاه سعاده ، هو اكثر من تعبير قاموسي . اكثر من تقديم قائمة فقط باعماله السياسية . اكثر من تأدية ارقام . انه المفترق ، الذي تتلاقى فيه ، جميع طرقات كيانه الوجداني

وجاء دور سعاده في دفاعه عن ذاته.لم يغير الرئيس ذهنيته لانه لم يبدل موقفه السكوني من اللغة . فلم يرَ فرقاً بين ان يدافع سعاده عن ذاته باللغة الفرنسية وان يدافع عن ذاته باللغة العربية . من هنا سؤاله انطون سعاده عما اذا كان يريد ان يتكلم بالفرنسية لانه يحسنها.

الواقع ان فهم سعاده للفرنسية كان فهماً قاموسياً . والقضية اخطر بكثير من هذا الفهم المعجمي . اخطر من احسان شكلي . ان الموقف رهيب . قال سعاده :

> ان الموضوع دقيق ، وتمكني من لغتي القومية ، يجعلني اقدر على التعبير عن رايي بدقة ارتجالا .

لقد استند سعاده هنا الى منطق نفسي في رفضه التكلم باللغة الافرنسية.

المقصود باللغة القومية ، في كلام سعاده ، اللغة الام . وليس كاللغة الام تستطيع فيها قوى النفس ان تتجند بغية الارتجال . ان تتكاتف كلها في وحدة عمل . ان تنصب رمةً في اتجاه واحد . ان تتناغم كلها خلقاً وسرعةً .

الارتجال يتطلب العفوية . والعفوية تفجر الكلمات مباشرة من القلب والعقل ، في الآن ذاته ، حالما يشعر الانسان بالحاجة الى التعبير عن المشاعر . العفوية هي الفة بين ارادة التعبير وصور الكلمات بحيث تدفق الالفاظ بشكل تلقائي خالص . المواقف الرهيبة لاتتسع للانتظار . فيها تدور الدوامة باسرع ما يمكن . دوامة الحياة في احر مداها . في اشد محرورها . ايعود بالامكان ، بعد ذلك ، ان تتباطأ اندفاعات اللطيفة الانسانية ؟ ان تتمهل ريثما تجد الكلمة المقابلة ؟ التباطؤ نوع من الغلاظة . لكن الأنسان الواعي ، في المواقف الرهيبة ، يشف ويلطف ، حتى يصبح النورانية ذاتها ، التي تكوّن كهارب الحياة . في هذه المواقف الرهيبة ، تنقلب الحياة ارتجالا ، عند الانسان. تكتمل شخصية المرء ، اكتمالاً نفسياً ، اذ تتعانق قوتا التفكير والتعبير ، في زواج واحد . عندئذ تصبح اللغة حركةً ديناميةً تنبثق من صميم الفكر . تصبح الفكر عينه . هذا الكمال في الزواج ، بين المبنى والمعنى ، لا يحصل الا في اللغة الام .

شعر سعاده ، في هذا الموقف الرهيب ، ان منطق النفس وُقف عليه . شعر بهوله . بمجتمعيته . بانطولوجيته . بأن الدفاع هنا عن نفسه هو اكثر من رصف معان ومعادلات حروف . أكثر من ألفاظ معجمية وقواعد نحوية . الدفاع هنا عن نفسه يتناوله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ويتناول المثُل القومية التي يدافع عنها .

فهمه للغة الفرنسية سقيم حيال خطورة الموضوع . على تلك الحافة العالية وقف سعاده . فراى ان القضية ليست ان يفهم ، فقط ، ولكن ان يُفهِم بفصاحة ، وبلاغة ، وبيان . كل ما فيه يجب ان يتكلم : نظراته ، حركاته ، نبراته ، وقفاته . اقناعه ينبغي له ان يتجاوز برودة العقل . عليه ان يُدخل رئيس المحكمة في مجاله .

ان يبرق له كهارب نفسه وحبات قلبه . القضية قضية كلية لا قضية جزئية . قضية اريحية تريد النفاذ الى المطلق . لاقضية مراعاة القواعد الصرفية والنحوية في اللغة الفرنسية . اذن لابد من الارتجال في الدفاع ، لان الارتجال صورة حية لالتحام الفكرة بالكلمة ، دماً الى دمٍ . والارتجال لايكون تاماً الا في اللغة — الام . فيها تتحرك اضواء النفس ، كلها ، وتندفع شحنات الفكر الى الامام .

وكأنني بالرئيس روسيه قد شعر ، من جهته ، بصحة هذا المنطق النفسي . شعر ، من صوبه ، بأن الموضوع دقيق . بأن الترجمة لا تفي بحق الموقف . وبأنه يحتاج ايضاً الى الارتجال فأراد ان يصطاد سعاده . فكّر في ان يجره الى اللغة الفرنسية . بذلك يأمن الغلبة عليه مبنىً . ومتى صرعه مبنىً صرعه معنىً . متى كبا سعاده بألفاظه كبا بمعانيه . في هذا الموضوع الدقيق لا فاصل بين التفكير والتعبير . ألح الرئيس على سعاده ان يتكلم بالفرنسية .

هنا نرى سعاده يكرر رفضه الدفاع باللغة الفرنسية . وقد استند ، هذه المرة ، الى الواجب القومي . قال :

> حضرة الرئيس . اني سوري ، وفي بلادي . واني اقود حركة تحريرية ترمي الى اقامة السيادة القومية ، وجعلها مطلقة ، فلست اقبل ان احمل على الكلام في بلادي بغير لغتي.

سيادة الامة تطلب سيادة اللغة القومية . واللغة القومية لا تستورد من الخارج . هي امتشاق من صميم الامة . والامة العفيفة تحافظ على عفاف لسانها اذا ارادت ان يكون لها تاريخ مجيد . لم يستطع سعاده ، على تلك الحافة الساحقة من حافات التاريخ الاكبر ، ان يتكلم بغير لغته القومية . لو فعل لرفض له التاريخ شهادته . لطرحه خارج البقاء . ان الزعيم الذي لا يتكلم بلغة شعبه ... ولا يخاطب امته بلغتها القومية...

هذا الزعيم هو في حكم الممات مع التاريخ . لان تحرير الامة لا يكون في المعنى دون المبنى . انه الاثنان معاً .

لم تعد القضية بين رجلين في المحكمة المختلطة . لقد اصبحت بين امتين في محكمة التاريخ . تحول الرئيس الى تلك الامة التي يدافع عنها . وتحول سعاده الى تلك الامة التي يريد ان يحررها . القضية ، اذن ، هي اكثر من ان يتكلم سعاده في المحكمة ، بلغة فرنسية صحيحة القواعد . لم يقبل ان يحمل على الكلام في بلاده بغير لغته . اجل ! ماذا كان التاريخ يقول فيه لو سجل على ذاته مثل هذه الهفوة ؟ احس بانه لم يعد ملك نفسه . شعر بان روسيه لم يعد رجلاً ، يخاطبه رجل آخر ، اسمه انطون سعاده . تراءى لسعاده أنه يؤدي شهادة للتاريخ . وأن دفاعه عن نفسه هو دفاع عن الامة ذاتها .

ذلك المنطق النفسي ، وهذا الواجب القومي ، هما اللذان دفعا سعاده الى ان يرفض التكلم ، في المحكمة ، باللغة الفرنسية . وقف سعادة وقفة بيانية صحيحة . اذ لو رضي بالفرنسية لغة دفاع عنه لكان هدم بلسانه ما بناه بفكره وقلبه . لكنه مساو لذاته نفسياً . لذا كان مدفوعاً ، بمنطق الحياة ، الى ان يرتجل باللغة العربية . وهكذا كان .

لابد لنا من ان نعطي شاهداً على ان اللغة الام ذات ثقل اكيد في لسان المرء . والترجمة اقرب شاهد ، وابرّ دليل ، واحسن برهان . لها فائدة كبيرة ، نوه بها من بعيد برغسون ذاته ، في خطبة له القاها — سنة ١٨٩٥ — على جمع من طلاب الفلسفة ، تحت عنوان «في الذوق السليم والدراسات الكلاسية» . وكان برغسون قد تمرّس ، في زمن التحصيل ، بالآداب الكلاسية (كاليونانية ، واللاتينية) ثم نقل منها الكثير الوفير الى اللغة الفرنسية ، مما جعله يذوق طعم ثمارها . وعى ما لها من فوائد جمة . وهكذا رأى في الترجمة خير وسيلة

لاطلاق الفكر من غلّ الكلمة . بها نكسر الجليد المتصلب ، فوق الوجدان ، لنعثر ، في مجاري الباطن ، ، على سائلية الحياة . على مائية الديمومة عينها . قال ، مخاطباً التلاميذ ، ما يلي :

ارى في التربية الكلاسيكية ، قبل كل شيء ، محاولة واعية لتحطيم جليد الالفاظ ، والعثور تحته على مجاري الفكر ، كما يندفع بانطلاقه الحر . ان ترجمة الافكار ، من لغة الى لغة، تعودنا سكبها في قوالب مختلفة. هذه الافكار تحررها الترجمة، نهائياً، من كل شكل لفظي ضيق، وتدعو الى التقاطها ذاتها بمنأى عن الالفاظ(١)

لا شائبة على كلام برغسون . وهو يتفق تماماً مع نظرته العامة في اللغة . تلك النظرة التي حمنا عليها ، سابقاً ، والتي تعتبر النفس جوّانية" واللغة برّانية" . تلك النظرة ، هي التي حدته على اعتبار الكلمة واسطة ، لا غاية . فأصاب قوله في ناحية وأخطأ في اثنين .

اصاب في الاشارة الى فائدة الترجمة ولزوم ترويض التلاميذ عليها . اخطأ عندما قال بأن الترجمة تعيننا على ادراك الافكار بمنأى عن الكلمات . واخطأ ايضاً لانه لم يحدد الجهة التي يجب ان يتخذها المترجم . هل يستطيع المرء ان يترجم ، حقاً ، من اللغة الام واليها ؟ والمقصود بالترجمة ، هنا ، تلك التي تحمل فيها طابع الخلق ، والابداع . تلك التي ترهف حسّ الجمال . والتي تهيأ لتقارع الاصل . لكنها لا تقارع .

كأني ببرغسون يجيزها في الجهتين معاً . والحقيقة ان الانسان عاجز ، كل العجز ، عن ان يترجم من اللغة الام واليها . الترجمة الممتازة ، الثابتة على الزمان ، لا تكون إلا في جهة واحدة . لا تحدث إلا من لغة بنت (أي أجنبية) الى لغة ام (اي قومية) . اما العكس فهو ازالة لمنطق الحياة . من هنا الاخطاء التربوية التي نرتكبها في لبنان .

---

١) Le Bon Sens et les Etudes Classiques

فقد تعودنا ان نعبر بلفظتي «ترجمة» و «تعريب» عما يسميه الفرنسيون «Thème et Version» . وهي عادة لم نركب راسها إلا حباً بالتشبيه دون البحث في هل يجوز الاقتداء ام لايجوز . اما الفرنسيون فقد عنوا بلفظة «Thème» نقل الافكار من اللغة الفرنسية الى اللاتينية او اليونانية . وعنوا بلفظة «Version» نقل الافكار من اللاتينية او اليونانية الى اللغة الفرنسية . ولهم في ذلك مبررات سنأتي على ذكرها . لكننا ، في لبنان ، لا نعرف بالضبط اية لفظة عندنا تعني «Version» واية لفظة تعني «Thème» .

اللغة العربية لم تهمل هذه الناحية . لقد ابانت ، بوضوح يتفق مع فلسفة اللغة ، ان الترجمة لا تحق الا في اتجاه واحد ... هو اتجاه اللغة الام . لا وجود لغير الترجمة التي هي نقل الافكار من لغة اجنبية الى اللغة العربية . واما التعريب فهو نقل المفردات الاجنبية ، بلفظها الاعجمي ، مكتوبة بحروف عربية . مثلاً : كلمة هاتف هي ترجمة ، كلمة تلفون هي تعريب . كلمة سيارة هي ترجمة ، كلمة اوتوموبيل هي تعريب . وقد اثارت هذه المشكلة جدلاً طويلاً ، عند العرب ، لمعرفة ما اذا كان القرآن يشتمل على كلمات معربة . فقد جاء قوله «إنا جعلناه قرآناً عربياً» . لذا سمع احدُهم ابا عبيدة يقول : من زعم ان في القرآن لساناً سوى العربية فقد اعظم على الله القول . لانه روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم ، في احرف كثيرة : أنه من غير لسان العرب . مثل ««سجّل» و«المشكاة» و«اليمّ» و«الطور» و«أباريق» و«إستبرق» وغير ذلك . يقول الجواليقي، في كتابه «المعرّب» تعليقاً على هذا الكلام : ان هؤلاء اعلم بالتأويل من ابي عبيدة . لكنهم ذهبوا الى مذهب وذهب ذاك الى غيره . ويضيف الجواليقي بان كليهما مصيب . اما وجه الاصابة ، عند الفريقين ،

فهو عائد الى ما يلي : ان هذه الحروف بغير لسان العرب في الاصل ، فقال اولئك على الاصل ، ثم لفظت به العرب بالسنتها ، فعربته ، فصار عربياً بتعريبها اياه . اذن هي عربية في اللسان اعجمية في الاصل . هذا القول يصدق الفريقين جميعاً . وقد قسم الجواليقي الاسماء المعربة ، الى نوعين :

احدهما : لا يعتد بعجمته . وهو ما ادخل عليه لام التعريف ، نحو «الديباج» و«الديوان» . الثاني : ما يعتد بعجمته . وهو ما لم يدخلوا عليه لام التعريف نحو «موسى» و«عيسى» [١] .

يتحصل من هذا ان دخول الاساليب الاعجمية قديم في اللغة العربية . يتصل بالعهد الجاهلي والعهد الاسلامي . وهو دليل رحابة صدر لاقتبال المفردات الدالة على نواح عديدة من الحضارات التي اصبح العرب فيما بعد ورثتها وبناتها . وقد اقرّ المجمع العلمي في مصر انه اذا لم يجد بعد البحث اسماء عربية للمصطلحات . وضع اسماء جديدة بالطرق المعروفة من اشتقاق او مجاز او غير ذلك . حتى اذا لم يوفق في هذا التجأ الى التعريب مع المحافظة على حروف اللغة واوزانها بقدر الطاقة [٢] .

قصدنا اذن بعد هذا الشاهد ان الترجمة لا تزاول الا في جهة اللغة الام . اما التعريب فيجوز اعتباره فرعاً من فروع الترجمة لا باباً على حدة . لانه ، هو ايضاً ، في جهة اللغة القومية ، لكن على طريقة اخرى . تدور الترجمة على نقل المعنى من اللغة الاجنبية الى اللغة الام . ويدور التعريب على نقل اللفظ من اللغة الاجنبية الى اللغة

---

١) راجع كتاب «المعرب» للجواليقي . ص ٤ – ٥ من المقدمة . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية . ١٣٦١ هـ

٢) سنة ١٩٣٤ ، ص ٣٣٣ .

الام . كلاهما في الاتجاه عينه ، كاننا بالعرب قد وعوا ، بهاجس باطني ، ان النقل لا يجوز من اللغة الام الى اللغة الاجنبية . لهذا لم يزاولوه . والتاريخ لا يعطينا مثلاً واحداً ، على امة من امم الارض ، اقدمت على ممارسته . اليس في هذا ما يجب ان نقف عنده ؟

رب معترض يقول : هب ان كلمة «تعريب» كانت تعني ، قديماً ، نقل المفردات الاجنبية ، بلفظها الاعجمي ، مكتوبة بحروف عربية . هب ان ذلك صحيح ، فقد اتسع نطاق هذه الكلمة ، واسبغ الاستعمال عليها ما لم يكن جائزاً ، في الماضي .

لاشك في ان الالفاظ كائنات حية . تتطور مع الزمان ، فتتبدل فحاويها ، وكثيراً ما تلبس فحوى معاكساً . لكن الخلاف لا يقوم على كلمة «تعريب» في حد ذاتها ، بقدر ما يقوم على السؤال التالي : هل بإمكان الطاقة البشرية ان تنقل الافكار من اللغة الام الى اللغات البنت «اي الاجنبية» ؟ أبمقدور العربي مثلاً ، ان ينقل الى الفرنسية ، باعتبار هذه غريبة عنه ؟

الجواب عن هذا السؤال يبين لنا ما اذا كانت الافكار ذات وجود مستقل عن الكلمات او انها ترتبط بها ارتباطاً شرشياً . لو كان باستطاعة المرء ان ينقل الافكار من اللغة ، التي تكون قد وضعت فيها اصلاً ، الى اية لغة اخرى يريدها ... دون ان ينقص شيء من جمال ادائها ... لجاء ذلك دليلاً على استقلالية الافكار بالنسبة الى الالفاظ . اما اذا فقدت الافكار جمالها ، بانتقالها من الديباجة الام الى ديباجة غريبة ، فيكون ذلك دليلاً قاطعاً ساطعاً الى انها من صميم اللغة المنقولة عنها .

وجوابنا عن هذا السؤال هو ان المرء لا يستطيع ان ينقل الافكار ، نقلاً تاماً ، من لغته الام الى لغة او لغات اجنبية . ان الترجمة الى

اللغة الام (مهما تكن فائقة) هي دائماً انحراف عن الاصل وخيانة له . فكيف بها اذا كانت الى اللغة البنت ؟

لانرمي هنا ، طبعاً ، الى الكتب العلمية ، التي لا يفوح منها الا رائحة الصقيع . بيت القصيد انما هو الانتاج الادبي بأوسع فحواه . الادب العالي يمثل مجموعة النفس البشرية في هنيهاتها المكوكبة . هو اقرب الى نفنافها . الى صماصيم فوادها . والادب مبنى ً فوق ما هو معنى ً او اذا شئت مبنى ً بقدر ما هو معنى ً . من هنا نرى سطوة الكلمة تعظم في الادب لتتحرش بالحس . في الادب تتجسم انطولوجية اللغة . يبين لنا ان اللغة ليست عباءة للمعاني بل هي المعاني ذاتها مكلمنة . ان اللغة عبقرية . ولكل لغة عبقرية خاصة بها تعجز عن ان تنقلها بالحرف عبقرية لسان آخر . لذا كانت استحالة ترجمة الشعر وكل ما يحمل في شرايينه ماوية شعرية . وقد تنبه الكثيرون — قديماً وحديثاً — الى تلك الاستحالة ، إمامهم بلا نزاع ، وشيخهم الجليل ، هو الجاحظ . قال ما يلي :

الشعر لا يستطاع ان يترجم ، ولا يجوز عليه النقل . ومتى حول ، تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موقع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور . والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، احسن واوقع من المنثور ، الذي حول عن موزون الشعر ... ولو حولت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن . مع انهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم ، وفطنهم ، وحكمهم .

ثم قال :

بعض من ينصر الشعر ، ويحوطه ، ويحتج له : ان الترجمان لا يؤدي ابداً ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده . ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجري . وكيف يقدر على ادائها ، وتسليم معانيها ، والاخبار منها على حقها وصدقها ، الا ان يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال

تصاريف الفاظها ، وتاويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؟ فمتى كان ، رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وابو قوة ، وابن فهر ، وابن وهيلي ، وابن المقفع ، مثل ارسطاطاليس؟ ومتى كان خالد مثل افلاطون؟(١)

يقول العالم الاجتماعي غوستاف لوبون ، في كتابه «روح الجماعات» ما فحواه :

إذا نظرنا إلى لغة من اللغات ، وجدنا أن الكلمات التي تتألف منها تتبدل ببطء في غضون الأجيال . غير أن ما تثيره من الصور ، أو ما يرتبط فيها من المعنى ،يتغير بلا انقطاع. ولذلك تراني قد انتهيت إلى النتيجة القائلة بأن الترجمة الصحيحة من إحدى اللغات ، ولا سيما لغات الأمم البائدة ، ضرب من المحال . وماذا نصنع بالحقيقة إذا ما استبدلنا عبارة فرنسية بعبارة لاتينية أو يونانية أو سنسكريتية، أو حاولنا فهم كتاب ألف بلغتنا منذ بضعة قرون ؟ نكون قد استبدلنا ما أثارته الحياة العصرية ، في أذهاننا ، من الصور والأفكار بما أوجبته الحياة القديمة من المبادىء والصور في روح عروق خاضعة لأحوال معيشة لا شبه بينها وبين أحوالنا المعيشية. ومما حدث أن خيل لرجال الثورة الفرنسية أن يحذوا حذو الأغارقة والرومان ، فلم يصنعوا غير منحهم لطائفة من الكلمات القديمة ما لم يكن لها من المعاني قط.... وما أكثر الألفاظ التي تغير معناها تغيراً عظيماً بين جيل وجيل ، على الوجه المذكور، ونحن لا نفهمها كما كانت عليه في الماضي إلا بعد جهد طويل. وقد قيل بحق إنه لا بد من مطالعات كثيرة لنتمثل ما كان يذهب إليه أجدادنا من معنى كلمة الملك ، والأسرة المالكة ، مثلا . وماذا يكون أمر التعابير التي هي أكثر تعقداً . إذن ليس للألفاظ سوى معان متحولة موقتة متغيرة ، بين جيل وجيل ، وبين أمة وأمة . وإذا ما أردنا أن نؤثر بالألفاظ في الجماعة ، وجب أن نعرف ماذا يكون معناها لدى الجماعة ، في زمن ما ، لا المعنى الذي كان لها في الماضي ، أو المعنى الذي يكون لها عند أفراد ذوي مزاج نفسي مختلف . إن الألفاظ تعيش كالأفكار (٢) .

نظر الجاحظ الى الترجمة من الناحية الجمالية في فن البيان فانكرها.

) راجع مقدمة كتابه الحيوان .

٢) راجع كتابه «روح الجماعات» ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٩٧ .

ونظر غوستاف لوبون الى الترجمة من الناحية الاجتماعية في فن الاداء فانكرها ايضاً . وهنالك شيخ آخر من شيوخ الفكر ، وحجة اخرى في علم الالفاظ ، اعني به بول فاليري . هذا الكاتب العظيم ، ضرب في مقالع اللغة ، كما ضرب الجاحظ قبله . طاردها برأس قلمه المروّس . تحداها . غاص على ناطحاتها حتى كشف الستائر عن خفايا حروفها . فاذا به يخرج من مقالعها بالحكم عينه الذي جاءنا من سواه محمولاً على اكف التاريخ .

ان الآداب جميعها ، منذ القدم ، تعطي الرأي ذاته في ترجمة الشعر . هنا يسمو الحرف ويتربع فوق دكة السحر العجيب . اذ ليس كالشعر دليل الى توأمية المبنى والمعنى . انه المهد ، الذي يلدان فيه ، من اب وام . هنا يصبح الكلام وكأنه فوق اللغة . يصبح من طبيعة الفلك . يصبح ذا قداسة ملائكية واعصاب مجنونة ونور في ظلمة الجهالة . هنا يرتفع الحرف من مادة صوتية الى روح لغوية . لذا لا يجوز لنا ان نمسه حين نشاء ، وكيف نشاء ، في سبيل غايات قريبة . لان الحرف لا يتركز ، في ابواب الشعر ، الا بدعوة من السماء . فمتى نزل في موضعه لاتعود قوة من قوى العالم كله قادرة على ان تزعزعه . للطفل احشاء واحدة ، ومهد واحد، ومنبت واحد ، وسلالة واحدة . هكذا الشعر لا يدنس . لا تفض بكارته . لا يرجع به الى الوراء لينثر او يُترجَم .

لنضرب مثلاً على ذلك . نقرأ هذه الخطبة لعلي بن ابي طالب :

اني احذركم الدنيا . فانها حلوة خضرة . حفّت بالشهوات ، وتحببت بالعاجلة ، وراقت بالقليل ، وتحلت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم حبرتها ، ولا تؤمن فجعتها . غرّارة ضرّارة . حائلة زائلة . نافدة بائدة . أكّالة غوّالة .

هذا الكلام واحد من «نهج البلاغة» . حبلت فيه نفس علي بحقائق البداية والنهاية ، ثم جاشت ، فاذا بها تنصب ، دفعةً ، على هذا الاطار من اللغة . انظر الى وجه تركيبه العجيب . كيف تعاقدت السماء والارض في حروفه . وتصاهرت في الفاظه . وتماسكت في مقاطعه . وتناغمت في نبرات صوته . لا تندّ كلمة واحدة . ولا تتخلف عن جارتها في سياق البيان . تتنادى ، من بعيد او قريب ، فتتجاوب ، وكأن فيها من كهارب الودّ ، ما يشد بعضها الى بعض . انت ، في نهج البلاغة ، فوق لغة التخاطب ، والتداول ، بغية اشياء من تراب . انت هنا في لغة تركيبها من لمعان الكواكب . من وراء الحياة. كل حرف من حروفها بيان كامل ولمحة دالة .

انظر الى هذا التساوق ، في التجربة الباطنية ، مبنىً ومعنىً . لقد ترك عليّ لطيفته تعمل على سجيتها الاولى فكراً ولفظاً كأنهما شقيقان من اب وام. ضخمة هي امكانية البلاغة ، عنده ، على نقل مجامر النفس . هو يرسل الشحنات بضراوة وتمزق وعبادة . حيث تهدر التجربة تُنقَل بحروف هادرة . وحيث تسكن تُنقَل بحروف ساكنة . وحيث تسفح ناراً تُنقَل بحروف سافحة. لهذا لاتقبل حرفاً عوضاً عن حرف . ولا تجد مفراً منه . المعاني في تهجاع ، لدى عليّ ، والحروف هجّاسة . اذا هبّت الخاطرة في صدره اتى الحرف مسانداً لها .

لم يرَ علي واجباً لتوخي السجع في اول الامر . لقد هيأ النفس تهيئة لطيفة . تركه وبدأ بشبه نثر . لكنه نثر متأهب . فيه بعض قوة الاغفاء يموج على مسافات قصار . واذ يشعر بأن العصب قد تخدّر ، تندفع التجربة صخابة ، فيترك المصاهرة في الاعراب تقوم بين «حبرتها» و«فجعتها» . ويتدافع السجع كالمطارق الضارية . انظر الى تلك الطلقات ، القصيرة المدى ، كيف تخرج كسيخ

محمية ، لتنعر في خاصرة القارىء ... « غرّارة ضرّارة » ... ارايت الغين ، والضاد ، والراءات ، في غرّارة وضرّارة ، يتوجها الشدُّ المحبوك ؟ وهي حروف ذلقية ، شجرية ، حلقية ، تخرج ملء الفم كأنها امتشقت من صماصيم الفؤاد الصاخب ؟

وتهدأ التجربة نوعاً . فيلين الحرف وترق النبرة . اذ لا تعود من قاع الحلق و لا من غار الحنجرة الغاضبة . انظر كيف ارسلت نحيفة . كيف تعاقبت «النافدة والبائدة» وهي حروف مستملحة . لا تشغل الفم رمةً كأنك تحرك شيئاً باطراف الاصابع . هي حروف مهموسة . لهذا لا تنقل الا افعالاً ضعيفةً .

وتعود التجربة الى الاندلاع ، فينتفض الحرف «اكّالة غوّالة» . انظر الى الكاف ، والغين ، والشدة . كأنك ماسك بالشاقوف ، بكلتي يديك ، تريد القضاء على خصم . لقد جُعِل الصوت اقوى لأن الفعل اقوى . لو ضربت في اللغة العربية كلها ، طولاً وعرضاً ، ما استطعت ان تجد اليق من هذه الكلمات « غرّارة ضرّارة ، اكّالة غوّالة » لتصف ضراوة الحياة . لؤمها . غشها . بطشها . تنكيلها بالانسان . ما لتلك الكلمات نظير في لغات البشر حتى نتمكن من ترجمتها . وهو نوع من التأكيد للمعنى الذي سيقت له . خرجت وكأنها معنى حسي . لان ائتلاف الحروف ، في تلك الالفاظ ، امتداد لائتلاف الاصوات في النفس . لقد جاءت محبوكة ، مفتولة الساعد ، مؤتلفة في نظمها الموسيقي .

الموقف لا يقتضي التحليل ، والتخريج ، لتندفع الجمل طويلةً بدون سجع . الموقف بين يدي الله . والله لا يخاطِب او يخاطَب الا بكلام متموسق . ان الحديث لهو عن هذا الوجود . لذا جاءت الالفاظ حادةً . مبريةً . شبّيعةً . جاءت افصح في الدلالة من غيرها .

وادق. واندى. واجمل . وابدع . واصفى . جاءت كالقنطرة المرصوصة . لا يفلت منها حجر الا ويسقط البناء دفعةً واحدةً. لا تسامح في كلمة . لا مراجعة . لا عودة . لقد هبط الحرف كانه جملة . والجملة كأنها بيان . والبيان كأنه وقف ممتنع .

هذه هي البلاغة البلاغة . أن تجمع بسط العلاء في قبض الحروف . أن تجمع الكثير من المعاني في القليل من الالفاظ . أن تكون الكلمة فيها عزيزة على الحس . فتجيء الموازنة طبيعية بين دلالات الخواطر وبيانات الحرف . اذا كانت التجربة صائحةً صائحةً اتت الألفاظ صائحةً صائحةً . واذا اقتضت التجربة سجعاً بحث الكاتب عن قرائن تكون ردائف تصل جناحاً بجناح . اذا تحمست النفس لجأت الى هذه الحروف لا تلك . واذا اضطربت لجأت الى حروف اخرى. وهكذا قل اذا افتخرت او حنت. ذلك ان النفس، حين تعبر ، لا بد لها من تأليف . والتأليف اصوات في حروف ، وحروف في كلمات ، وكلمات في جمل ، وجمل في بيان . التأليف هو كل هذا رمةً . دفعةً . هو قطعةٌ واحدةٌ . اذا كانت الجملة ذات معنىً فلأن كلماتها ذات معنىً . واذا كانت الكلمات ذات معنىً فلأن حروفها ذات معنىً . واذا كانت الحروف ذات معنىً فلأن اصواتها ذات معنىً . واذا كانت الاصوات ذات معنىً فلأنها اتت على نسب ترجع الى مادة النفس . مثَل ذلك مثَل العقد ، الذي يتألف من خرزات مختلفة القدّ ، والشكل ، والجوهر ، واللون، والخرط. اين يبتدىء العقد ؟ امن الخيط وحده ؟ ام من شكل الخرزات فقط ؟ ام من لونها ؟ كذا قل عن التأليف . من اين يبدأ ؟ امن الصوت ؟ ام من الحرف ؟ ام من الكلمة ؟ ام من الجملة ؟ الحق ان التأليف

هو كل هذا دفعةً . فالذي يستخف بواحد من اجزائه يستخف به كله .

ايجوز ، بعد ذلك ، ان نترجم نهج البلاغة ؟ ايبقى على حاله من الروعة والجمال ؟ من الهيبة والجلال ؟ ايبقى ذا سطوة على القلوب ؟ ماذا يصير بالضاد في ضرّارة ؟ وبالكاف في اكّالة ؟ وبالغين على كتف الواو تحت الشدّ في غوّالة ؟ هذه الاحرف ، التي قامت عليها ضخامة المعاني ، تتهافت . تنهار . تزول من الوجود . اين تصبح بلاغة عليّ بعد ذاك ؟ الجيشان في الخاطر يهدأ . ينحل . اذ لا سجع في غير العربية . ولا ضاد في غير العربية . فاذا حول كلام عليّ ما وجد في معانيه شيء غريب . شيء يغفي . شيء يسفح ناراً ويذيب لطافةً . معنى هذا ان روعة البلاغة ، في نهجه ، هي من جلال الابلاغ . من شوكة الكلمة . هنا السحر في القالب . وما القالب الا القلب ذاته مسدداً الى الخارج . والقلب لا يسخر . اي لا يُترجم .

صدق الجاحظ . إن الترجمة لا توفي حقوق الاصل . لا تؤدي الامانة . من قرأ شكسبير مترجماً وبقيت عضة الجمال في اعصابه ؟ من قرأ هيجو مترجماً وظلت غفوة السحر في اهداب جفونه ؟ ذاك الود بين الحروف يهتك . ذاك التركيب الممتنع يدنس . ذاك العفاف في البدء يخدّش . من صومعة الهية يهبط القارىء الى حانوت فقير . من استطارة في الالحاظ ، والتماع في العينين ، ينتقل الى بصيص ضوء باهت . من سخاء الى شح . من بحبوحة الى تقتير وتقنين . من روضة الى خربة . هذا ما تفعله الترجمة بالاصل . وليس من قلميّ يستطيع ان يتلافى هذه الكارثة الجمالية . كأني بها صورة حية عن تركيب الانسان ذاته ... ذلك التركيب القائم على طهارة

منبت واحد . فاذا بحث المرء عن منبتين له خرج على ناموس الحياة عينها .

اجل ! كل ما يكتب وفيه شيء من المجاز الادبي ، وفي عبارته انسجام ، وفي مخارجه براعة ، وفي حروفه ود ، وتساند ، وافضاء بعضه الى بعض ، يكون ادباً لا يمكن ترجمته بدون خيانة . ان كتب الدين ، والشعر ، والاخبار عن قدرته تعالى ، وعن شطحات اهل الصوف ، اعسر بكثير من ان تترجم . واضيق . واشد . هنا يقوم الجمال في جسمانية الحروف . في لحمية الالفاظ . في دم الكلمات . في رصها اخوات خصراً الى خصر . كتفاً الى كتف . في تطريزها ، وتخريمها ، مقطعاً مقطعاً ، ونبرةً نبرةً . في عذوبتها ، وفي رقتها . في توقدها ، وفي مغازيها . في جرسها الذي يهمس في الاسماع ، وفي حلاوتها التي تسيل اللعاب على اللسان . في لهجتها . في اطرافها . في جسأة اعطافها . في رنتها ، فوزنها ، فشكلها . في ما دق من روائحها وفاح من معانيها . كل هذا هو الجمال في الادب . أليس من الضلال والتضليل ، اذن ، ان نحصره في المعنى وحده ؟

الجمال هنا لا يخاطِب العقل فقط . انه من بنات الحس ايضاً . والحس يتأثر بكل هذه الجسمانيات معاً . يتأثر بصوتية الحرف وجرسه . بالصورة التي تعطي الفكرة شكلاً مرئياً . بالنبرة التي تخرج بها الفكرةُ طويلةَ المدى او قصيرة . هذه المؤثرات ، التي تساعد على ابراز الباطن جميلاً ، هي من بنات العصب الرهيف . فمتى انتقلت الفكرة الحلوة ، من ديباجة الى ديباجة ، خسرت هذا العصب . فقدت جمالها . لم تعد فكرةً ادبيةً بل فكرةً لا غير . اذ ليس المهم ان يُفهَم الادب وانما المهم ان تنام على سماعه اعصابنا المتربصة . الفهم وحده عنصر جامد . اعور . والحياة الكاملة هي في وحدة

العقل والقلب . هذا هو الاديب الكبير .

الفكر والحس شرطان للخلود في كل رائعة انسانية . ولا نعني بالفكر جفاف المنطق . بل مداً في العقل الى مراتع الجمال . ولانعني بالحس رخاوة المتميع . بل حناناً في القلب الى مضارب الحق . الفكر والحس ، في ناطحات الوجدان ، اقنوم واحد . هناك ، فوق تلك الحافات اللاهبة ، يتعانقان . هناك تنقلب الانسانية بهما من شحيح الواقع الى سخاء المجاز .

نقول هذا لان الحس لا يبدع ، في النفس ، كألفاظ مجردة فقط . وانما يدور دورته الخلاقة بالدلالات التي يشير بها الى الحق الاكبر . وهل تبطل اللفظة عن ان تكون حساً اذا عنت حقائق انسانية عالية ؟ ونقول هذا ايضاً لأن الفكر لا يبدع ، في النفس ، كفكر مجردة فقط . وانما يدور دورته الخلاقة بالقلم المعسول اي بالكلمة الجميلة . وهل تبطل الفكرة عن ان تكون فكرةً اذا تكلمت في بيان مجلو؟ متى ابتعد الحس عن ترهات الوجود محلقاً في دهاليز النفس ... في سراديبها ... تناول هذا الوجود كأكثر من ديباجة قاموسية . تناوله من جهة الحق الذي ينير . ومتى اغار الفكر على المعطيات البادئة ... على الفباء الكائنات ... نظر الى الوجود من وراء عينيه ، ليراه باجفان الحالم ، اي بعصبية العاشق . لهذا ينتهي في البيان . الحس الكبير لا يرضى بما يحد اطاره فلا يبدأ . والفكرة الكبيرة لا تقنع بما ينتهي فلا يعاد . ان معناها الاسمى هو في البادىء المعيد . نعني في مجاز الحقيقة لا في الحقيقة ذاتها . الحس لا يفتأ يتلمح غيباً في كل حاضر ، والفكر لا يبرح يضرب في مجاهل كل معلوم ، حتى يلتقيا امام الباب المرصود ، الذي لئن اتيته من جهة القلب ،

او من جهة العقل، فانه هو هو من حيث جئته . وتمتد اليدان الى المفتاح العجيب ، حتى اذا لمستاه ، احترقت الاصابع ، وترمدت فوق العتبة الغريبة . هناك يصبح كل شيء رؤية . والرؤية بلاغة .

من الخطأ الاعتقاد ، اذن ، أن الابجدية هي بنت العبث ، او أن حروفها قيلت باعتباط . تلك الحروف لم تصطنع بصورة باردة . اي لم تكن لأن داعية ارادها كائنة فكانت . وقد كان بمقدوره الا يريدها كائنة فلا تكون . مثل هذا الاعتقاد انحراف عن جادة الحق . لانه فهم للغة بطريقة مومياثية . والدليل الى ذلك هو ان تاريخ الابجدية ما زال في غياهب المجهول . ان جميع المحاولات ، في سبيل اماطة اللثام عن مصدرها ، ظلت بعيدة عن مخبأ سرها . لا المكان عرفناه ، ولا الزمان وعيناه . اجل ! لقد عثرنا على القديم منها . لكن هناك الاقدم الذي ما فتىء مقنعاً . والاقدم علة القديم وفحواه .

الابجدية قديمة قدم الانسانية . هي والانسانية شيء واحد . بل هي الانسانية في نضوج . هي الحياة ذاتها واعية ، والحياة لا تفعل شيئاً ، دون ان يأتي هذا الشيء في نصابه من ابوابها . كل ما توجده الحياة له فحوى لدى النهاية الكبرى . له غاية . له ايعاز . ذلك انها لاتعرف الزائد الذي لا معنى له . لا تعرف الترف . اذن ليست الحروف امراً عبثاً . اذا كانت الاحرف فلجذور لها في قاع الوجود الانساني . واذا رتبت ، وفق سمت معين ، فلأن هذا الترتيب ذو مغزى . من هنا اعتقادنا الراسخ ان للحروف مدلولات في النفس . لها طبع ومزاج . الذي يتلمسها يدرك الكثير من غوامضها . ودقائقها. واسرارها . يدرك انها من ريق الله .

نقول والحالة هذه ليس عبثاً سميت العربية بلغة الضاد . هذه الضاد لم يكن بمقدورها ان لا تكون في لساننا . وليس عبثاً كان عدد

حروف ابجديتنا تسع وعشرين حرفاً . وليس عبثاً كان ترتيبها على طريقة خاصة . القضية ليست بهذا المقدار من العبث . لان قوى العالم كلها لا تستطيع ان تجعلها ثلاثين حرفاً . او ان تحل الباء قبل الالف . او الجيم بعد الحاء . او ان تجعل الضاد في غير اللسان العربي . اذا كانت حروف الابجدية — في اية لغة من لغات البشر — تتلاحق ، وفق نهج معين ، فلغاية في واعية لطيفتنا . لو ان القضية من بنات الارادة ، التي تتواطأ على هواها ، لتيسرت جميع مآزق الفكر . لكن القضية ابعد من ذراعنا بكثير . الارض والسماء تزولان وحرف واحد لايزول . والمقصود بالحرف ، هنا ، ليس فقط ذلك الصوت ، الذي نقرع به شفاهنا ، ، وانما ناموس حياتي يقوم عليه فهمنا للوجود، ويجعل من الانسان كائناً يعي ، بل يعي انه يعي . لولا هذا الحرف ، ما كان الانسان الا بهيمة مهملة ، او اطاراً بدون صورة .

نقول ، اذن ، ما كان تتابع الحروف الا باعتبار صريح من منطق النفس . هذه الحروف تتناسب ، مع الباطن ، مناسبة طبيعية في الشدة واللين . في المهموس والمهجور . معناه ان لكل حرف خاصة وجدانية يمتاز بها . طبعه في التصويت هو ذاته انفعال من الانسان . انفعال يسبب كل هذه التنويعات في الحروف من حلقية ، وشفاوية ، ولثوية ، ولهوية ، وشجرية ، وذلقية . لذا كان للحرف سماكته الانطولوجية.من يمسه يهتك حرمة اللطيفة البشرية.انه اعجاز الابجدية. اعجاز هو نفسه عجز المرء ان يجعل التاء قبل الباء والدال بعد الياء.لا عبث اطلاقاً في تسلسل الاحرف الابجدية . ليحاولن الانسان ان يعطل ترقيم هذه الحروف ، او ان يلغي حرفاً واحداً من ابجدية ما ، او ان يزيد حرفاً عليها ، فان اصابعه تحترق ، وتترمد، قبل ان تمتد الى مثل هذا العبث . مثله مثل من يطفيء نور عينيه . من يقطع وريده . من

يشيء ذاته .

هذا المنطق النفسي ، في الابجدية، هو منطق كل لغة بشرية . لكننا ، هنا ، في حضرة العربية . لنكتف بالحديث عنها . وقد اكثر اللغويون من التوغل في مجاهلها حتى بان لهم ما يزيد الانسان هياماً بها . لقد كان انصبابهم عليها قوياً . استقرأوا كل حروفها ، حتى ألفوا الكتب الضخمة عن كنهها . ولا نبالغ اذا نحن قلنا انها من ارحب لغات الارض . من اسلسها وامتعها . والذي يدهش حقاً في اولئك اللغويين الجهابذة انهم عرفوا – بعد عركهم للغة العربية – ان لحروفها مغامز نفسية بعيدة حين تدخل في تركيب الالفاظ . قيل ان الكلمات المختومة بالحاء تدل على الاتساع ، والانتشار ، والامتداد ، والتفريق . مثلاً : باح السر ، فاح المسك ، لاح القمر ، ساح الماء . وقيل ان الالفاظ المبدوءة بالغين تدل على معنى الخفاء ، والظلمة ، والانحراف ، والسرعة . مثلاً : غبش الليل ، غابت النجوم ، غار في الارض ، غرق في البحر . وهكذا لكل حرف مصير .

والفصاحة عينها لا تقوم الا على اساس الحرف . قاعدتها ان تسلم الكلمة من الحروف المتنافرة ، كلفظة (عخعخ) وهو نوع نبات . سئل اعرابي عن ناقته ، اين هي ، فقال : لقد تركتها ترعى العخعخ . هذه الكلمة غير فصيحة لكون حروفها من مخرج واحد هو الحلق . قال ابو الطيب المتنبي :

جفخت وهم لا يخفجون بهابهم   شيم على الحسب الاغر دلائل

ان لفظة جفخت (ومعناها فخرت) كريهة على الذوق ، فظة ، غليظة ، مرة الطعم . لا تمر على السمع ، دون ان يقشعر منها ، لثقل

نطاقها في اللسان . وقال بعضهم :

كنتُ كنتُ كتمتُ السر كنت كما كنا وكنت ولكن ذاكَ لم يكن

هنا جاءت الحروف قلقة مكدودة . جاءت مكررة على غير لطف وسماحة. لهذا فقد البيت جماله. من الخطأ اذن اهمال موسيقة الحروف بداعي انالفكرة مستقلة عن قميصها . متى توافر شرطها لا مانع ان تلبس قميصاً آخر . كلا ! الالفاظ ليست — كما يقول الامام الجرجاني في «اسرار البلاغة» — خدم للمعاني تصرف وفق حكمها . يعتقد هذا اللغوي ان المعاني هي المالكة سياسة الحروف . لذا تستحق الطاعة . لا شك في نصف ما يقول . ذلك لان الفاصل بين والمعنى المبنى ، غير واضح كما يظن. سهل ان نقطع ، بالذهن ، مملكة الفكر عن مملكة الحرف. لكن الواقع غير هذا. لاننا عاجزون عن ان نتلاعب ، وفق هوانا العابث ، بمنطق الابجدية . وهو الدليل الساطع ، في حسباننا ، الى ان الحرف عالم ضخم .

لكل حرف مخرج ، في جسم الانسان ، يختلف عن مخرج سواه . هذه المخارج تتراوح بين الرئة والفم . فهو ، اي الحرف ، اما ان يخرج من الحلق ، او من الرئة ، او من الفم ، او من الشفة . هناك الحروف القريبة من الرئة البعيدة من الشفاه . وهناك الحروف البعيدة من الرئة القريبة من الشفاه . والحرف لا يحدث إلا باقتراع في الهواء . هذا هو الصوت . واقتراع الحروف يختلف باختلاف المخرج ، اي باختلاف الموجة الهوائية ، التي تطرق اما الحلق — في اقصاه او ادناه — واما قاع الفم ، واما طرف الشفة . مجموع تلك الطرقات الهوائية تسع وعشرون طرقة . هو ما سمي بالاحرف الابجدية في اللسان العربي .

لهذا سمي بعضها بالحلقية ، لانها تخرج من الحلق : كالهمزة ،

والحاء، والخاء ، والعين ، والغين ، والهاء . وسمي بعضها باللهوية لان مخرجها من اللهاة : كالقاف ، والكاف . وسمي بعضها بالشجرية لانها تخرج من مقدم الفم : كالجيم ، والشين ، والضاد . الى ما هنالك من انواع الحروف الباقية. هذا هو سبب عدم تشابه الاقتراعات. الذي يحدث في الحلق غير الذي يحدث في الشفاه . مثَل ذلك مثَل المزمار المثقوب . ان الثقب الاول لا يصوت كالثقب الاخير . تختلف الاصوات في السمع بحسب قرب الثقب او بعده . وهكذا اقتراعات الحروف . بعضها حاد . وبعضها حلو . وبعضها جهير . وبعضها لين . ولا شك في ان كل حرف يحدث صوتاً له اثر خاص في النفس . منها ما هو مستملح ، ومنها ما هو مستكره . ومنها ما يكون اعذب في السمع ، حين يركب ، واقرب الى ذوق الفؤاد ، ومنها ما يكون ابعد .

يتحصل من كل هذا ، أن اللغات لا تطابق بعضها بعضاً ، من جميع نواحيها . هناك اختلاف مبين بين الأسماء ، والأفعال ، والحروف . بين التركيب ، والتقديم، والتأخير . بين الاستعارة، والتشديد ، والتخفيف . كل هذه الصفات في الوزن ، والنثر ، والسجع ، والنظم ، هي التي تؤلف جوهر اللغة . وهي التي تتساند فيما بينها لتلهب الحس بالجمال . ذلك هو الاستهواء الصوتي في اللغات البشرية . ومـن هنا إخفاق جميع المترجمين في نقل الروائع الأدبية من لغة إلى لغة . لأن أفعى الجمال لا تلسع في الترجمة . ولا تحرق جمرة البهاء . ذلك السحر ، ذلك العجيب ، ذلك السيال ، ذلك الدفء، كل هذا الغيب يزول . كأن حنيناً قد خنق . كأن حفقاناً في الرحم قد أوقف . إن يد المترجم هي الأثيمة .

وصلنا الآن إلى ما ينبغي أن نجيب عنه . أبمقدور الانسان أن

ينقل عن لغته الأم ؟ الجواب واضح . فقد أبنّا كيف أن النقل عامةً لا يمكن حصوله . إذ لا يكفي أن نفهم ذهنياً . ان الجمال في التعبير الأدبي يزاوج بين التجريد الشامل والاحساس الفردي . فإذا كان للحرف سماكة انطولوجية ، كان لا مفر منه لابلاغ المعاني بسطوة ، كيف نستطيع القول بأن النقل جائز إلى اللغات الأجنبية ؟ الألفاظ البليغة ليست عملةً سائرة . هي نادرة . والنادر لا يستعاض عنـــه .

في النقل عن اللغة الأم اتجاه معاكس لوضع شريعة الحياة . لناموسها الصارم . مثَل هذا النقل مثَل من يسبح في صعود . لا بد لأعصابه من أن تتفتت أخيراً وتتحطم . إن منطق الحياة لا يقبل المواربة . وكم يبين لنا عظم الخطأ ، الذي نرتكبه في لبنان ، عندما نفرض على الطالب اللبناني أن ينقل الجاحظ ، مثلاً ، إلى الفرنسية . ألا نهتك بذلك حرمة وجدان الطالب ؟ ألا نساعد ، نحن ، على طمس امكاناته ؟ على كبتها ؟ كأننا والحالة هذه نسهم في جعل التربية تعجيزاً . من الخطأ أن ندفع الطالب اللبناني إلى ما لا يمكن فعله . التربية ليست تكعيب دوائر ولا تدوير مكعبات . الحقة منها والصالحة هي التي يتبع بها الانسان مجرى الحياة .

يعتقد أكثرنا أن الترجمة تساعد المترجم على التحكم في اللغة التي ينقل اليها . وقد وضعت في المناهج التربوية ، عندنا ، استناداً إلى هذه العقيدة . وهي لا تزاول من طلابنا إلا في ضوء ذلك الايمان القائل بأنها تمكنهم من اللغة المنقول اليها . هذا الإيمان خاطىء . وقد أبنا كيف أن الطريقة المثلى ، لتعلم لغة أجنبية ما ، هي أن ينتقل الانسان إلى المجتمع الذي يتكلمها ، والذي يحدث فيه الترابط المباشر بين الخبرة واللغة . فيه يزاول الانسان اللغة الأجنبية على غرار مزاولته

اللغة الأم ، أي انه يعيش الاسم والمسمى في آن واحد . هذه الطريقة هي التي انفتحت لها عقول المربين ، أخيراً ، وقد أخذت بها المعاهد الغربية الكبيرة . وهي تعني أن الترجمة لم تعد سبيلاً من سبل تعلم اللغات الأجنبية .

يبقى ان للترجمة فائدة عظيمة شرط أن تكون اللغة المنقول اليها لغة أم للمترجم . إذ ذاك تفيده الترجمة إفادةً إيجابيةً . وتنحصر الافادة في أن هذا النقل يكشف له عن كنوز لغته الأم التي كثيراً ما يجهل خفاياها . الترجمة من لغة أجنبية إلى اللغة القومية تضع المترجِم حيال أفكار ممتازة ، ومعان كاملة ، يجب عليه أن يرتفع إلى ذروتها العالية ، كي ينقلها مبنىً ومعنىً إلى لغته الأم . هذا الارتفاع إلى شاهق فكر الآخرين . . . هذا الكد في اختراق لغتهم . . . يستلزم العناء الذي هو حثٌ على التفكير ، تتفتق فيه أقمطة الجهل ، فيذوب الصدأ عن القلم والدماغ معاً . قيل كل لسان بإنسان . وهو حق . لأن ابعاد الوجدان تزيد بمقدار ما يتعلم المرء ألسِنَةً جديدةً . والمقصود باللسان هنا اللسان الغريب عن اللغة الأم . هذا التعلم يزيد في عدد الشرفات التي يطل منها الانسان على لغته الأم . على قوميته . لأن الانسانية ليست خارج الانسان . وإنما فيه . من العبث أن نفتش عنها في البرانيات . إن زيادة الألسنة تزيد إنسانية الانسان . تلك الانسانية التي يقوم إدراكنا لها على التغلغل في الباطن . على التناغم مع الشعور القومي الذي يضع الانسان في صميم المطلق. الشبابيك تفتح عل الداخل. على اللغة الأم. لأن الترجمة عاجزة عن أن تمكننا من كنوز اللغات الأجنبية . إذ لا طاقة لنا على إدراك عبقرية لغة لا تكون لغتنا الأم . ونقصد بالعبقرية الخلق بعفوية ندية ، وابتكار ممتاز ، لا يمكن أن يحصل ، بالأساس ، إلا في لغة واحدة . هي اللغة القومية .

تجدر الاشارة ، هنا ، إلى المبررات التي جعلت الغربيين ، كالافرنسيين ، يزاولون ماسمّي Thème وهو النقل إلى اللاتينية واليونانية . سيما الأولى . ذلك ان اللغات الأوروبية تنتسب إلى العائلة ذاتها التي تنحدر من اللاتينية واليونانية . فإذا اطلع الافرنسي على اللاتينية ، وحاول أن ينقل اليها بشيء من الحذر ، كشف له هذا الاطلاع عن حقيقة اللغة الافرنسية ، المنبثقة من اللسان اللاتيني . إنه يدور في فلك واحد . في عبقرية واحدة . في مجال يعينه على فهم تاريخ اللسان الافرنسي . كيف بدأ ، وتطور ، واستقر . إن الغربي لا يزاول النقل إلى اللاتينية رغبة منه في التحكم فيها كلغة أم له . لكن رغبة منه في الاطلاع على مخبآت اللغة الافرنسية . إن القرابة اللغوية بين هذين اللسانين تجيز تربوياً مزاولة ذلك النوع من النقل .

لكن ماهي الفضيلة التهذيبية ، التي يجنيها اللبناني مثلاً ، إذامارس النقل إلى اللاتينية ، باعتبار أن العربية هي لغته الأم ؟ هل يكتسب من جراء ذلك رشاقةً في إنشائه العربي ؟ أو متانةً في تركيب جمله ؟ أو براعةً في اختيار ألفاظه ؟ الترجمة تفقد كل قيمة إذا خرجت عن كونها سبيلاً إلى إغناء لغة الانسان القومية . إنها ترويض لقلم الكاتب في لسانه . هي عجن ، ودعك ، وتليين للألفاظ ، التي لا تطيعه في لسانه . هذه هي غاية الترجمة وإلا زالت مبرراتها . وقد أعطت نتائج حسنة في الأدب الغربي . معظم الكتاب الفرنسيين مدينون ، في تمكنهم من لغتهم الأم ، لاطلاعهم على اللاتينية . فإذا طبقت شريعة هذا المنطق ، على الطالب اللبناني ، وجدنا أن اطلاعه يجب أن يسدد نحو اللغات السامية ، التي إذا مارس النقل اليها ، بلطافة وحذر ، قد تصل به إلى فائدة لغوية في لسانه العربي .

الترجمة تحدث في مرحلتين : الأولى نلتقط بها المعاني في اللغة

الأجنبية . والثانية نكلمن بها تلك المعاني من جديد في اللغة الأم . هي مزدوجة الجهد . نمعن النظر في الأصل كي نتحسس الخاطرة البكر . بهذا الإمعان نفصل اللحمة عن السداة . نصل إلى الغور . نضع يدنا على عفاف المعاني . على أدق نبضاته ، وأبعد غاياته . ذاك هو التلقيح . ثم يأتي دور الوضع لحماً ودماً في اللغة الأم . لا شك في أن الاحتكاك باللغة الأجنبية يسمح للمترجم أن يدخل إلى مطاويها . إلى خباياها وخفاياها . إلى نفسية الشعب الذي يتكلمها . مما يقوي الصداقة بين المترجِم والمترجَم. فيكون همزة وصل بين شعب وشعب . وهو عينه الذي يساعد على نشر الحضارات . لكن الغاية الأولى والأخيرة من الترجمة هي أن ترفع اللغة الأم إلى مصاف اللغة المنقول عنها . أن تقيسها بها في أسمى هنيهاتها . الترجمة أصلاً هي في خدمة اللغة الأم . بها نتفهم روح لغتنا . نتلمس عبقريتها . ننبش كنوزها المدفونة . نكشف عن كل مواطن القوة والضعف . بتلك المقابلة نستشرف حياة قومية أوعى . إذن الترجمة وسيلة لنتمثل اللغة الأم لا لنتعلم اللغة الأجنبية .

في ضوء هذا نقول بأن المترجِم ينبغي له الاتصاف بحسنتين : عليه أولا أن يدرك بطريقة تامة اللغة التي ينقل منها . وعليه ثانياً أن يدرك ، بطريقة أتم ، اللغة التي ينقل اليها . من هنا كلام أندريه جيد :

على المترجم الممتاز أن يعرف ، تمام المعرفة ، لغة المؤلف الذي ينقل عنه . وأن يعرف أكثر أيضاً لغته الخاصة به . أعني بذلك ، ليس فقط أن يكون قادراً على الكتابة في لغته ، بطريقة صحيحة ، وإنما أن يدرك دقائقها ، وطواعياتها ، وكنوزها المحجوبة . ولن يقوم بهذا العمل غير كاتب مطبوع . المترجم لن يرتجل (١) .

معنى هذا أن الترجمة الحلوة هي التي تحصل بتصرف . فعلُها الأساسي

---

١) Divers ، ص ١٨٩ .

لا يقف عند حد نقل كلمة بكلمة . إنها نقل جو بجو . أو مناخ بمناخ . أو روح بروح . نقل عبقرية بعبقرية . من هنا كونها عملاً قلمياً يتطلب الخلق . الترجمة لا تكون قيداً . هي فعل حر . هي اشتباك قوتين ، صدراً إلى صدر ، وكتفاً إلى كتف . مثلها مثل خصمين يتسايفان . يتجابهان . المترجم كاتب عملاق . وهو البادىء بالتحدي . فعلى المترجم أن يكون عملاقاً ليواجه التحدي بتحد مماثل . لقد سيق إلى العملاقية . وهو لا يستطيع أن يتعملق إذا كانت الترجمة قيداً . لهذا هي خلق ثان . وقد وصف مصطفى صادق الرافعي ترجمة البؤساء التي قام بها حافظ فقال :

ومن الخواص التي انفرد بها حافظ ، انه ظاهر في صنعة ألفاظه ظهور هيجو في صنعة معانيه ، إذ لا تجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب ، أو يطبقه . وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم ، قبل أن تكشف عن اسم المؤلف ، فلا يحيا الميت إلا بموت الحي . وهم في أكثر ما يصنعون ، لا يعدون أن يصححوا العامية ، أو يفصحوا بها قليلا ، فيستوي في صنعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا ، أو ذاك ، أو ذلك ، لأنهم سواسية . ولا تؤتيهم كتبهم أكثر مما يؤتيك الاسم المعلق على مسماه .

غير أنك في البؤساء ترى مع الترجمة صنعة غير الترجمة ، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة ، وألفه حافظ مرتين . إذ ينقل عن الفرنسية ، ثم يفتن في التعبير عما ينقل ، ثم يحكم الصنعة فيما يفتن . ثم يبالغ فيما يحكم . فأنت من كتابه في لغة الترجمة ، ثم في بيان اللغة ، ثم في قوة البيان . وبهذا خرج الكتاب وان مترجمه لاحق به في العربية من مؤلفه ، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه (١) .

قلنا ، فيما سبق ، أن الترجمة من اللغة الأجنبية إلى اللغة القومية تضع المترجم حيال أفكار ممتازة ، ومعان كاملة ، يجب عليه أن

---

١) وحي القلم ، الجزء الثالث ، ص ٤٢٢ .

يرتفع إلى ذروتها العالية ، كي ينقلها – مبنىً ومعنىً – إلى لغته الأم. وقلنا أيضاً بأن غاية الترجمة ، والحالة هذه، هي ان ترفع اللغة الام ، اي القومية ، الى مصاف اللغة المنقول عنها . ان نقيسها بها في أسمى هنيهاتها. لذا كانت الترجمة الحقة خلقاً ثانياً. فإذا تمَّ ذلك، ونادراً ما يتم ، لاتعود الترجمة ترجمةً ، بل تصبح من صميم الأدب الأم، أو الأدب القومي، إذ تخلد كما لو كان قد بُدِىء منها توا. أما الشاهد فلا ينقصنا . نذكر أولا «كليلة ودمنة» تحفة ابن المقفع. وهي ترجمة. إلا ان ابن المقفع أبدع في النقل ، وحلق ، حتى ساوى الأصل . لذلك لم يبق عمله بمثابة ترجمة. لقد كان خلقاً ثانياً. من هنا ولوج «كليلة ودمنة» هيكل الخلود، في الأدب العربي، كساعة من ساعاته المكوكبة.

ولنا شاهد آخر ، حديث العهد، يرسخ مانذهب اليه . ويقويه. ويدعمه أكثر فأكثر . نعني به قصيدة «البحيرة» للدكتور نقولا فياض التي هي ترجمة لقصيدة الشاعر الافرنسي لا مرتين . هنا يبين لنا واضحاً عمل الترجمة الخلاقة . أمامنا أديبان صحيحان . المنقول يتحدى الناقل . وقد أتت ردة الفعل عظيمةً كفعل التحدي ذاته . الناقل من طراز المنقول . لم يعمد إلى نثر ما نظمه لا مرتين شعراً . لقد ضرب الشعر بشعر . ضرب الوزن بوزن . والقافية بقافية . ضرب الجو الكبير بجو كبير . فجاء النَفَس خالداً في الناقل خلوده في المنقول . لذا صارت هذه القصيدة من روائع الأدب العربي الحديث .

نستنتج من هذا أن الأدب مبنىً قدر ماهو معنىً . المبنى هنا صاحب الكلمة الفصل لأن المعاني وحدها لا تخلّد . فلو كان ذلك ، لنُثر الشعر ، وهان الأمر ، وكتب الخلود لصعاليك القلم . لكن القضية لا تقف عند هذا الحد إذ لا وجود للمعنى بدون المبنى . المعنى الجميل جميل بمبناه . والمبنى الجميل جميل بمعناه. هذا الحد الفاصل ، إذن ،

هو من خلق الواهمة . لا حد يقف عنده المعنى . الأدب الرفيع يجمع بينهما ، فلا يقبل المعنى جميلاً ، إذا كان مبناه غير جميل . إذ لا ممر هنا بين المعنى والمبنى .

ظاهر أن المعنى ، الذي نقصده ، معنى عريق. اذ المعاني على ضربين : ضرب يرف مع الأرض ، فلا يسمو ، لأنه في متناول كل واحد ، ولأنه لا يستلزم كداً وعرقاً ، في البحث عنه . انه على حبل ذراعنا . إذن لا مجال هنا كي نبتدع له الأساليب الأدائية المبتكرة. نقوله ولا غاية لنا إلا أن نُفهِم الآخرين ، في سبيل الوصول إلى تحقيق حاجة قريبة. الضرب الثاني ، من المعاني ، هو الذي يندر وجوده ، فلا يحدث الا على أيدي الذين يطاردونه ، بكد وعرق . مثله مثل اصطياد للؤلؤ في قاع البحار . على صياديه ، وهم من فئة العباقرة ، أن يبتدعوا له الصناعة النادرة . ذلك الضرب من المعاني لا يُتنبه له إلا عند الأمور الجليلة . لذا كان أمراً جليلاً للغاية ، لا يُتكل في تأديته على العبارة المفهومة ، فقط ، بل يُتوخى له البيان الجميل ، وإلا ذهب احسنه ، وطمس نوره .

لا بد لنا في هذا المجال من أن نمر لماماً بمسألة اللغتين اليونانية واللاتينية . . . تلك المسألة التي أثارت ، في الغرب ، من المناقشات مالانهاية له . وقد كانت سبباً لانجرافنا في تيار التقليد دون أن نحكم العقل بعض الشيء . أنخنا طلابنا لهاتين اللغتين ولم نتساءل عما إذا كان هذا العمل جائزاً. إن الطالب الغربي يزاولهما سيما اللاتينية لعلة واضحة . هي أن اللغات الأوروبية تنتسب إلى العائلة التي تنتسبان اليها . فإذا اطلع الغربي على اللاتينية ، وتبحّر فيها ، كشفت له حقيقة لغته الأم ، واتسعت آفاقه ، وانجلت . رغم ذلك ، فقد قامت القيامة عندهم ، في سبيل الحد منها . وعندنا لم تقم القيامة بعد .

قيل ، بصـــدد هاتين اللغتين ، انهما تشملان فضيلة تهذيبية ، تنحصر في تدريب العقل البشري على الوضوح ، والمنطق ، والتنظيم ، والاصابة ، تنحصر في تمكينه من التفكير بدقة وإحكام وجلاء. وقد سرت هذه العقيدة ، مدةً طويلةً في رقعة الغرب ، فكانت الأساس الأول للتربية المدرسية . وإذا رجعنا إلى حياة برغسون ، رأينا محاولات شديدة قام بها ، في سبيل إظهار قيمة اللغة اللاتينية خاصة (١) . فكان من الداعين إلى تدريب الطالب بقوة على هاتين اللغتين لكي يكتسب الوضوح في التفكير والجلاء في التعبير .

علماء الغرب لم يتركوا هذه العقيدة بدون تمحيص . لقد سيطرت زمناً طويلاً ، على العقول المحافظة ، ثم راح العلماء يبينون أن تلك الفضيلة التهذيبية ، في اللاتينية واليونانية ، شيء مزعوم . إنها موجودة أيضاً في اللغات الحديثة. إذ لا أفضلية للغة على لغة . ولغات البشر كلها تحمل فيها الفضائل التهذيبية التي تحملها اللاتينية واليونانية . جميعها تحمل الامكانات الأدائية ، ضمن عبقريتها ، شرط أن يريد الشعب ، الذي يتكلمها ، ان تحقق هذه الامكانات . فلا زعامة ، في عالم اللغات ، ولا عبودية . لكل لغة عبقرية خاصة ، ينفذ منها الشعب إلى المطلق العام ، شرط أن يتمنى ذلك ، وان يعمل في سبيله .

الذي يعود إلى تاريخ المناقشات ، التي دارت حول تينك اللغتين خاصةً ، واللغات الميتة عامةً ، يرى بوضوح أن نفوذهما قد انكمش ، كثيراً ، عما كان عليه . لم يبق لهما من مدافعين إلا الذين استحوذ عليهم طيف التقاليد . إذ ما النفع من فرضهما على الطالب ؟

---

١) راجع كتاب Bergson Educateur ، تأليف Rose Marie Mossé Bastide الفصل التاسع ، Presse Universitaires ، ١٩٥٥ .

أن الفضائل التهذيبية ، التي يتذرع بها المحامون ، فهي من نسج الخيال . نحن لا نعلم لماذا يجب أن يكون، عند تلك اللغات ، ما لا تستطيعه غيرها . ما الحكمة في الطبيعة من أن تحصل اللاتينية على مالا يجوز لسواها ؟ ما الغاية من تصنيم اللغات القديمة ؟ ان القول بكون اليونانية ، واللاتينية ، رياضة ذهنية ممتازة . . . بأنهما تساعدان الطالب على اقتناص المعاني من الكلمات ، كما يريد برغسون ،وانتزاع الأفكار من الرموز اللفظية . . . هذا القول لا يبرر فرضهما على الطالب .

التربية الحديثة تتجنب حشو الذاكرة. تتحاشى الترف الذهني. وتنصب دفعةً على الذي ينفع الطالب . ماهي المنفعة من تعلم هاتين اللغتين ؟ لا منفعة بدليل كونهما ميتتين . الأجدر أن يُحتفظ بهما لرجال الجامعة ، وحدهم ، الذين يريدون التنقيب في الآثار القديمة . إذ لا ريب في أن الرجوع اليهما ذو فائدة تاريخية للذي يبتغي الاطلاع على دقائق الماضي . أما الفضائل التهذيبية فهي موجودة في اللغات الحية التي نحن بأمس الحاجة اليها . ألا نرى في الألمانية ، والانجليزية ، والعربية ، والفرنسية ، ما هو قادر على تربية الفكر ، وإنماء العواطف، وتقوية الثقافة الذهنية ؟ يقول جون لوك :

عندما يتمكن الولد من التكلم بلغته الأم يحين الوقت لأن يتدرب على لغة أخرى . ولا أحد يشك ، عندنا ، في أن الفرنسية هي اللغة ، التي يجب على الولد أن يختارها . ذلك أن الفرنسية هي لغة حية ، تستعمل في الأحاديث ، أكثر من غيرها . على الولد ، إذن ، أن يبدأ بها . ومتى أصبح يتكلم جيداً ، باللغة الفرنسية ، ينتقل بعد ذلك إلى اللغة اللاتينية... تلك اللغة التي اعتبرها لزوم ما يلزم لتربية (الخواجات)..(١)

---

١) راجع كتابه Pensées sur l'Education ، ص ٢٥٤ ، طبعة ١٨٨٨ ، ترجمة Gabriel Compayré

نلاحظ كيف يضع لوك اللغة الأم في الدرجة الأولى . ذلك لما تفرضه الحياة على الإنسان من قوانين ملحة . اللغة القومية هي المطل الوحيد الذي يشرف منه الوجدان على أوابد المطلق . وهو ما أجلينا غوامضه في الباب السابق . ومن ثم ينتقل لوك إلى القول بضرورة تعلم الولد لغة أجنبية حين تأتي المناسبة . وللمناسبة وقت معين لا يجوز لنا أن نتصرف به اعتباطاً . هذه المناسبة تأتي بعد أن يتمكن الولد من لغته القومية . وهو ما أجلينا غوامضه ، أيضاً ، في الباب السابق . ولم يذكر لوك اللغة اللاتينية إلا في الدرجة الثالثة ، أي أخيراً ، باعتبار أنها واجبة ، فقط ، لذوي الترف الذهني . وكأني به يقول : لا منفعة عملية ترجى من الإنغماس في اللغات القديمة . الواقع أنها بدون منفعة لأن مجتمعها قد زال من الوجود . واللغة ، التي لا مجتمع لها تزاول فيه ، هي حقاً لغة ميتة . هي غزل دخاني في جو من الضباب . تلك هي المثالية الخرقاء . لقد وضع لوك المنفعة قبل الترف . العمل المجدي قبل حشو الذاكرة . رأى أن اللغات الحية هي أفضل من اللغات الميتة لأنها حية . لأنها تتجسم على الأرض في بيئة معينة . لو كان للغات الميتة فضيلة تهذيبية ، ليست لدى غيرها ، لما اندثرت ، وأصبحت ميتة . الحياة تنازع بقاء . الأفضل يظل وسواه يرحل . تلك هي قاعدة النشوء والإرتقاء في نطاق القوى البشرية .

كانت اللغات القديمة لزمن غير زماننا . عاشت في جو غير جونا. وخضعت لنواميس اجتماعية غير نواميسنا الإجتماعية . وعكست حيوية بيئات غير حيوية بيئتنا . ثم دالت دولها ، وانقرضت شعوبها، فكان من الطبيعي أن تناخ لقوانين التطور . وها هي غائبة عن مسرح الحياة . غائبة لأن مجتمعاتها قد غابت . واللغة ، التي لا تتمظهر في ألسنة البشر ، يكوّنون مجتمعاً حياً ، ليست بلغة . فإعطاؤنا اللغات

القديمة تلك الفضيلة التهذيبية ، التي يدعون ، تنبثق من المبدأ الخاطىء القائل بفصل اللغة عن الإنسان . يزعمون أن اللغة موجودة بمعزل عن المرء كما يزعمون أن المعاني موجودة بمعزل عن الكلمات . هذه المثالية الجوفاء هي التي أبعدتنا عن واقع الحياة ، عن صريحها ، عن بسيطها ، لننسج لها إطاراً من الخيال المريض ، الذي لا يتفق مع حضيضها . قال جول لومتر (Jules Lemaitre) :

ماهو ذلك الكنز المشهور من المبادىء العامة ، التهذيبية ، التي احتكرتها اليونانية واللاتينية ؟

لا أتكلم عن اليونانية ، التي لم يعرفها جيداً – حتى في مرحلة التعليم العالي – إلا بعض الاختصاصيين . أما اللاتينية فأين كنزها ؟ أنا لا أرى فيها ذلك الكنز المزعوم انه الوحيد الذي لا يقوم شيء مقامه . ذلك الكنز أراه فقط في بضع صفحات من لوكريس تتجلى فائدتها أنها داروينية النزعة بابهام . وفي بضع قطع من كتاب فرجيل المعروف بجورجيك . قطع لا توازي هذا أو ذاك مما كتبه لا مرتين أو ميشليه . كلا ! أشعر جيداً أنني لست مديناً ، في تهذيب قلبي وعقلي ، للأغارقة ولا للرومان . إذا كان ، والحالة هذه ، قد تفلت منيّ ما استطعت أن أنتفع به من اللغة اللاتينية (أنا الذي أجدت معرفتها منذ خمس وعشرين سنة) فماذا ينتفع تسعة أعشار طلابنا ، المظنون أنهم يعرفونها ، لكنهم لا يعرفونها ، ولا يستطيعون أن يعرفوها (١) .

هذا الكلام لاحد أهل القلم عند الفرنسيين. لاحظ أن أدب هاتين اللغتين لا يختلف بشيء عن باقي الآداب الحديثة مما يجعله ذا فضائل تهذيبية أحسن . أضف إلى ذلك أن معرفته لها لم تدرك الحد الوسط . السبب ؟ لا مجتمع يزاولهما فيه . إذن ما الفائدة من أن يرهق الإنسان ذاته في دراسة لغات ، لا تأتي عليه بنفع ، إلا في حقل من التخصص الضيق ؟ ألا تشتمل اللغات الحديثة على تلك الفضائل التهذيبية ؟أتكون

---

١) راجع كتاب Psychologie de L'Education. Gustave le Bon ص ١٦٤، Flammarion، ١٩٣٦ .

هاتان اللغتان اليونانية واللاتينية من عمل السماء ، وتكون باقي اللغات الحية من عمل الأرض ، حتى تحرم الفضائل التهذيبية ؟نقول ما من لغة بشرية إلا وتحمل فيها تلك الفضائل التهذيبية ضمن عبقريتها. لا زعامة في عالم اللغات ، من حيث الجوهر ، ولا احتكار . لا إقطاعية ولا عبودية . لا أمة ولا ست بيت . لكل لغة مزاج وطباع ينفذ منها شعبها إلى المطلق العام .

إن الإنسان العشريني لم يعد كإنسان القرون الغابرة ، ضيق الفكر ، يشرف على الوجود بمنظار ، زجاجتاه اللاتينية واليونانية . الحقيقة ليست فقط في حضارتي اليونان واللاتين . هي أوسع من أن يحصرها عصر واحد.أوسع من أن تنحصر في هاتين اللغتين ،اللتين تتمتعان بأسبقية مزعومة ، وفضائل تهذيبية موهومة . لقد انهارت ، من زمن بعيد ، الأسطورة القائلة بأن الذهن اليوناني ، أو اللاتيني ، هو أحسن الأذهان. هو أنبلها وأرفعها وأقدسها . أصبحت نظرة الإنسان في الوجود أرحب بكثير من أن تسعها لغتان . وإذا كان التبحر في اللاتينية ، مثلاً ، يفيد الذين يتكلمون اللغات الهندواوربية ، لأنه يكشف لهم عن جوهر لسانهم ، فاحرِ بنا أن نتبحر في السريانية ، والعبرانية ، والفارسية ، لنضع بين أيدينا مفاتيح اللغة العربية .

لا شك في أن هاتين اللغتين ساعدتا ، يوم كانتا حيتين ، على إيجاد عقول نبيهة وقلوب فاضلة . لقد أخرجتا أذهاناً نيرةً استضاء التاريخ بحكمة رشدها . وهو الدليل إلى أنهما قامتا بواجب التربية القومية في سبيل إنشاء جيل طالع . لكن هذا شيء وإبقاؤهما على القاعدة ذاتها شيء آخر . لقد تحول العالم عما كان عليه متطوراً وفق ناموس النشوء والإرتقاء . ترك قميصاً ، بل قمصاناً ، ولبس قميصاً، بل قمصاناً أخرى . فهل يعقل أن يسير ورائياً ؟ أن يتقدم خلفياً ؟ متى

زال المجتمع من الوجود أصبحت جميع مظاهره الحضارية وثائق تاريخية ، لا تُعاش ، وإنما يُرجع إليها كأداة صالحة ، يتلهى بهـا الإختصاصيون من العلماء .

نعود إلى القول بأن تصنيم اليونانية ، واللاتينية ، عائد إلى عدم الإعتراف بوجودية اللغة . بلزوم تجسيمها في وجود إجتماعي . إلى عدم التسليم بأن اللسان كيان حنجري لا مجموعة ألفاظ مثالية . لقد زال الإنسان اليوناني فزال المجتمع اليوناني . زال الإنسان اللاتيني فزال المجتمع اللاتيني . زال الإطار الأرضي لتلك السماء العامرة بالنور . لذا زالت سماؤها أيضاً . قيمة اللغة في أنها اختبار يتحسسه المرء لحماً ودماً . قيمتها في أنها تخفف من آلامه . وتفجر من ينابيعه . وتفتح المنافذ لكبته حتى يتنفس. في قيمتها أنها توصل وجداناً بوجدان. تقيم التفاهم بين قلبين . أما إذا لم تكن شيئاً ، من كل هذا ، فـأين محصولها ؟ أين قيمتها الوجودية ؟ تبقى وثائق للتاريخ يعاد إليها في سبيل الإطلاع على الماضي .

الغريب في الأمر أن العصور القديمة لم تشعر بهذه الفضائل التهذيبية. مجتمع القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، لم يذكر أن للغة اللاتينية من الصفات المتفوقة ، ما نحاول اليوم أن نعطيها إياه . لقد كانت هذه اللغات ، في حينها ، كما هي أية لغة من اللغات الحديثة : أداة تفاهم بين الناس وسبيل للتخفيف عن النفس . إذا كان الشعب اللاتيني سعيداً ، في زمانه ، فلأنه لم يدرس غير اللسان اللاتيني . وكان يأخذ ذلك اللسان من أفواه اليونانيين ذواتهم ، كما نأخذ نحن اليوم اللغات الحديثة ، من مجتمعها فوراً . وإذا كان الشعب اليوناني أسعد أيضاً ، من اللاتين ، فلأنه لم يدرس لغةً ماضيةً ، لها فضائل تهذيبية ، ليست في لغته اليونانية . فلماذا يريدون ألا تكون في لغاتنا الحديثة فضائل

تهذيبية كتلك التي كانت تتمتع بهما ؟ لماذا يريدون أن نصنم نحن تينك اللغتين في حين أن شعبيهما لم يفكرا يوماً بإعطائهما تلك الفضائل؟ تتجه التربية الحديثة نحو التوفيق بين دروس اللغة ودروس الأشياء . فمن الخطأ إناخة الطالب ، اللين العود ، لآداب لا يستطيع أن يتحسس ، في مجتمعه ، بما تتحدث عنه . وكيف يمكن أن يحصل ذلك في تعليم اللغات القديمة ؟ اللغة مرآة تعكس روح المجتمع . هي والمجتمع شيء واحد كما هي والإنسان شيء واحد . وما دام المجتمع اليوناني، واللاتيني قد زال من الوجود فانه لم يعد من مبرر لفرض لغتيهما على غير الإختصاصيين . قيمتهما محصورة في أنهما وثائق تاريخية . ما عدا ذلك فلا خطورة لهما .

يبقى أن نعالج ، من معضلة اللغة ، ناحية هامة . هي « ازدواجية العامية والفصحى » . من الأفضل أن نسميها « مشادة بين العامية والفصحى » . هذه المشادة ذات سجل بعيد في تاريخ لغتنا القومية . تتراوح ، في ماضي العربية وحاضرها ، بين فئتين متنازعتين : الأولى تدافع عن الفصحى ، وتعتبر العامية انحطاطاً . الثانية تدافع عن العامية ، وتعتبر الفصحى قديمة وهذا ما نعالجه في الفصل التالي .

الفصل الرابع
في ازدواجية اللغة

بعد أن خرجت اللغة العربية من الجزيرة ، على أثر الفتوحات، انتشرت في بلاد أعجمية كالفرس ، والروم ، وغيرها . فأدّى ذلك إلى وقوع اللحن في قراءة القرآن . لهذا أسرع العرب إلى وضع النحو ليحفظوا به اللغة من الفساد. وقد أفاض ابن خلدون في ذكر هذه الأسباب التي حدتهم على إنشاء علم النحو . قال في مقدمته ما فحواه:

لما جاء الإسلام ، وفارق العرب الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة ، بما ألقى إليها السمع من المخالفات ، التي للمستعربين. والسمع أبو الملكات اللسانية. ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ولطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم. فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة ، شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها أنواع الكلام. ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع . ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته اعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم . فقيدوها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة . واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو(١) .

---

١) ص ٥٤٦ ، الباب السادس ، الفصل السادس والثلاثون .

وقد روي أنه جاء مرة قوم إلى زياد . فقالوا : أصلح الله الأمير ! توفى أبانا وترك بنون . فانصعق زياد لهذه الأخطاء الفاضحة ، وطلب أبا الأسود الدؤلي فقال : ضع للناس العربية . هم يلحنون في القرآن، فلو رسمت لهم رسماً . إن المراضع من الموالي قد أفسدوا ألسنة الذين أرضعنهم من العرب .

هذا بعض ما حدا العرب على وضع النحو . وقد تمّ لهم ذلك كما أرادوه . لكن ذلك التقيد لم يصنها من اللحن ولم يضبطها على ألسنة الناطقين بها . مراراً حاولت أن تفلت من قيود الإعراب في جميع العصور ،التي تعاقبت عليها ، بعد أن سنّت شريعة النحو . ولم يستفحل الهجوم على النحو إلا في الآونة الأخيرة .

هاتان الفئتان ما زالتا تتنازعان المشكلة . الأولى تبالغ في تصوير خطر العامية . والثانية تهوّن كثيراً قيمة الفصحى . يقيناً منا أن هذه المشكلة تتعدى نطاق اللغة . وتتجاوز حنكة الصرفيين والنحويين والبيانيين لتدخل في نطاق الفلسفة . فتخبطهم حولها ناجم عن أنهم لا ينظرون، فلسفياً، إلى الأمور الكبيرة في اللغة . ذلك لأن كل بحث في اللغة (سيما إذا كان يرمي إلى انقلاب جذري) هو بحث فلسفي بالجوهر . لذا نحن عاجزون عن أن نعدل منطق الحياة بغير منطق الحياة . أمور كهذه لا تبت حول طاولة مستديرة وبطريقة تعسفية . علينا أن نكيف أهواءنا ، وفق ما يقتضيه منطق الحياة القويم ، وذوقها السليم . أجل ! إن البحث في العامية والفصحى أقرب إلى الفلسفة منه إلى اللغة . هو يتجاوز ، كما قلنا ، الصرف والنحو. يتجاوز البيان . ويدخل تحت قبة الأنطولوجيا في النهاية لأنه يعكس موقفنا من الإنسان كله . من الوجود عامةً . من أخطر معضلات هذه الحياة

التي نعيش فيها . نعني بذلك أن علم اللغة وحده لا يستطيع أن يميط اللثام عن حقيقة العامية والفصحى . ولا أن يميل بنا إيجابياً إلى الفصحى أو إلى العامية . هل بمقدورنا أن نحدد ، على أساس اللغة فقط ، مـا هي الفصحى ، وما هي العامية ؟ أين تبتدىء الأولى ، وأين تنتهي الثانية ؟ ولماذا وجد هذا التنازع بين العامية والفصحى ؟

نحن لا نرى فرقاً ، على الأطلاق ، بين الحركة والسكون . بين الجيم والراء منفصلين . بين مطلق حرف وحرف . أو كلمة وكلمة . هذه اللغويات هي من صميم الكيان الإنساني ذاته . أما أثبتنا أن الجملة كلام مفيد يرمي إلى دلالات ذات مقصد ؟ وهل المقصد إلا رأي في النفس البشرية ؟ وقد ظهرت هذه الناحية الفلسفية في قواعد النحو . إن الفتح ، والضم ، والكسر ، إشارات . وأما النصب ، والرفع ، والجر ، فمعانٍ . الأولى مواضعات صوتية . هذا صرف . الثانية عوامل وجدانية . هذا نحو . وسنوضح فيما بعد ماذا نقصد بقولنا ان النحو فلسفة الصرف . الجواب الذي نسارع إلى إعطائه ، منذ الآن ، هو التالي : لا نستطيع أن نقضي على الفصحى في سبيل العامية ولا على العامية في سبيل الفصحى . كلتاهمـا ، الفصحى والعـامية ، من معطيات الوجـدان البديهية . ويقـوم خطأ الفئتين ، المتنازعتين ، على أنهما تميزان ، في الطبيعة لا في الدرجة ، بين الوجدان واللغة . على أنهما تعتبران اللغة واسطةً لا غايةً . أي شكلاً خارجياً فقط ، يمكن استبداله بشكل آخر ، دون أن يمس جوهره . تعتقد هاتان الفئتان أن اللغة غلاف للمعاني لا يربطه بمضمون الرسالة شيء من الباطن . تعتقد أن اللفظة كبسول تتضمن الفكرة دون أن تكون الفكرة . فهناك على زعمهما فكر مجردة عن اللغة . ظاهر أن مثل هذه الأقوال تعني أن اللغة وسيلة . وما دامت هي هكذا ، أي

كبسولاً أو قشرةً ، فلا شيء يمنعنا من أن نتصرف بالكبسولى أو القشرة ، كما تشاء ميولنا .

أما نحن فقد قلنا كلمتنا صريحةً خلال الفصلين الأولين . اللفظة والفكرة شيء واحد . الفكرة لغة لم تتقرطس . واللغة فِكَر مقرطسة. لا لغة بدون فكر . ولا فكر بدون لغة . وقد عنينا باللغة شيئاً أكثر من قرع الشفتين . شيئاً هو من ريق الوجدان عينه . في رأينا أن اللفظة ليست كبسولاً متى فرقعت تسيأت . الكبسول هو أيضاً فكرة .وهذا يعني أن الإزدواجية في اللغة هي ذاتها امتداد لازدواجية في الوجدان. إذن اللغة العامية دليل وجود فكر عامي . واللغة الفصحى دليل وجود فكر فصيح .

لا شك أن للغة حياة . والحياة هي العنصر الإنساني .لكن ما هي الحياة وما هو الإنسان ؟ في الجواب ، عن هذا السؤال الضخم ،حلٌّ نهائي للمشادة بين العامية والفصحى . لقد كان من واجب اللغويين (ما داموا يعرِّفون اللغة بالحياة والعنصر الإنساني) أن يتفلسفوا حول هذين المفهومين . إذ كيف نستطيع ، حسب قولهم بالذات ، أن ندرك حقيقة اللغة ، إذا كنا نجهل الحياة ، ونجهل العنصر الإنساني ؟ وهل البحث في الحياة والإنسان إلا بحث فلسفي خالص ؟ ماذا تقول لنا الفلسفة إذن عن الحياة ؟ تقول بأن الحياة ليست بسيطة كما نعتقد . ليست خطاً واحداً. وإنما هي جدلية الحركة . مزدوجة الإتجاه . هناك السلب والإيجاب في تدافع مستمر وتصاهر دائم . فيها العقل ، وفيها القلب . للأول أسلوبه ، وللثاني أسلوبه . هناك العواطف القريبة المنال ، وهناك الأفكار البعيدة الإدراك . هناك النادر ، وهناك المبتذل. هناك العريق (هذا فصيحها) ، وهناك المشاع (هذا عاميها) . ولقد صوب هيجل كل نشاطه الفكري نحو إظهار التناقض في قوانين الحياة.

قال بأنه يجب علينا التسليم بوجود مبدأين يتنافى دفعةً كل منهما مع الآخر . وكان قد سبقه أرسطو وكانت إلى الإعتراف بتراكيب ثنائية . وإلى القول بالتالي إن التنافي - أو التناقض - هو الدليل على وجوب نقد العقل البشري ، وتحديد نطاق عمله في سبيل إدراك المعرفة . ولا ضرورة إلى عرض النتيجة السلبية التي قدمها لنا كانت. قال بأن العقل لا يقوى ، بسبب هذه التراكيب الثنائية ، على أن يتجاوز حد الظواهر . هيجل رأى أن تقدم الإنسانية مرتبط بالتناقض الموجود بين القوانين الوجدانية . كل نوع من التناقض يعود إلى هنيهة من هنيهات الوجدان . إذ لا يمكن أن نحصر هذا في خط واحد جامد . اذ الوجدان حركة تطورية خلاقة يتحول بها من وجود إلى لا وجود ومن لا وجود إلى وجود . الضد يظهر حسنه الضد . يعني أن الضد يخلف الضد . ولا يتم ذلك مطلقاً ، بحذف أحد الطرفين ، في سبيل الآخر . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، أن تتقرطس الوجدانيات البعيدة لغةً فصيحةً ، وأن تتقرطس الوجدانيات القريبة لغةً عاميةً . كما في الحياة كذلك في اللغة . كلما ضرب الفكر ، في الندرة ، استلزم لغةً فصيحةً . وهل البيان إلا ندرة ؟ وهل فن الكتابة إلا صياغة ؟ إلا فن جميل ، غايته الدقة في التعبير ، والسلامة في التفكير ، والإبداع في الصورة ، والجمال في الألوان ؟ من هنا كون السمو في الكتابة نادراً جداً . فهل يعقل أن يسكب هذا الأدب الرفيع في لغة كل يوم وفي ألفاظ كل ساعة ؟

لنعد إلى الإنسان الذي هو أصدق تعبير عن حقيقة اللغة . ولنعد إلى الطفل ، من الإنسان ، الذي يلخص لنا المراحل الماضية ، في تاريخ البشرية . الطفل صورة مصغرة عن ذلك التاريخ . إطاراته هي ذاتها إطارات الأجيال الغابرة . يبدأ كما بدأ الأولون . ويترعرع كما

ترعرعوا . مراقبتنا للطفل تعيننا كثيراً على أن نتلمس بدء الكلام . وتطوره . واستقراره . إذن كيف يبدأ الطفل بالكلام .

الجواب هو هذا . تبدأ اللغة ، عند الطفل ، أصواتاً . ثم ألفاظاً متقطعةً لا روابط فيما بينها . وأخيراً جملاً مفيدةً بمعنى النحو . تبدأ لغة حس ، لغة ذات فردية . وتنتهي لغة عقل ، لغة ذات مجتمعية. تبدأ لغة حاجات بيولوجية ، وتنتهي لغة منطق مجرد. تبدأ رصّ كلمات ، وتنتهي رصف جمل .

يبدأ الطفل بقوله : بابا . وهو يقصد بذلك أن اباه قد حضر من الخارج أو أنه يحضر . وقد أسمى هنري فالون هذا النوع الوجداني ، عند الطفل ، بالإضمار اللغوي أو « الإضمار في اللغة » . وهو يرجع إلى كون الأشياء والحقائق غير واضحة لدى الطفل . وإلى كـون عقله يجهل بعد كيف يستخدم الأشياء بحيث يعيدها في النهاية إلى بضعة عناصر وشروط . وقد أعطى فالون عدة أمثلة على هذا الإضمار في اللغة . نذكر منها الآتية :

الراشد — أشر إلى شعرك ؟

الطفل — (يشير إلى شعره) .

الراشد — ما هو الشعر ؟

الطفل — لا أدري .

الراشد — ماذا أفعل ؟ (يجذب خصلة من شعر الطفل)

الطفل — شدّ .

الراشد — أباستطاعتك أن تقتلع الشعر ؟

الطفل — كلا .

الراشد — هل ينبت الشعر من جديد إذا اقتلع .

الطفل — كلا .

الراشد — ألا ينبت مطلقاً ؟

الطفل — كلا .

ويقول فالون : لعل الطفل قد اقتصر على التعبير بكلمة واحدة عن الحدث ، الذي وقع عليه ، دون أن يزيد فاعلاً إلى الفعل . وذلك بسبب موقف سلبي متصل بتأثير سيء . ويعطي فالون مثلاً آخر . هو الآتي :

الراشد — هل يمكننا السير على الشاطىء إلى الأمام في خط مستقيم ؟
الطفل — كلا .
الراشد — لماذا ؟
الطفل — إنه ماء .

وقد لاحظ فالون أن الطفل لا يبين ، هنا ، إلا سبب عدم القدرة — بصورة مقتضبة جداً — تاركاً للسامع أن يخمن الباقي . كيف ولماذا لا نستطيع [1] .

يفتتح الطفل حياته اللغوية بكلمات مفردة يقصد بها ما نقصد نحن بالجمل . يقول : طاولة . ويقصد بذلك أن يضعه أبوه عليها . يقول : باب . ويقصد بذلك أن تفتح الخادمة الباب . يقول : أمبو . ويقصد بذلك أنه يريد كوباً من الماء ليشرب . وهو كثيراً ما يستعين بالإشارات ليدعم الكلمة المفردة . ثم ترتقي لغة الطفل ، لتصبح ثنائية الكلمات ، فثلاثية الكلمات ، دون أن يدرك الجملة وفق المنطق . فهو يرتبها بشكل يتفق مع الأهمية التي تكون لكل كلمة . يقول مثلاً : خبز بدي آكل . لقد قدم « الخبز » باعتباره أكثر

---

١) راجع كتابه Les Origines de la Pensée chez l'Enfant. Henri Wallon
ص٢٣ الجزء الأول . باريس ١٩٤٧

عناصر الجملة أهمية في نظره .

وأول ما نلاحظه ، في تطور اللغة عند الطفل ، ظهور أسماء الذوات ، بادىء بدء . ثم الأفعال . ثم الصفات . ثم الضمائر . وأخيراً الحروف وما يشبهها من ظروف وأسماء الشرط . لذا تبدو جمل الولد ، في أول الأمر ، عارية من الروابط والحروف . أما السبب في ذلك فهو راجع إلى كون اللغة ترتقي وفقاً لارتقاء الفكر . إذ هي الفكر ذاته . والفكر لغة صامتة . ودرجة الإرتقاء تبدأ من الحس . والحس متقطع كالكلمات المفردة . لذلك يقتصر متن لغته في البداية على أسماء الذوات التي هي ألفاظ مفكفكة . ثم ينمو صعداً من الحس إلى العقل فيدرك أن للكلمات مدلولات هي أمور معنوية . هنا تبدو الأفعال (التي تعبر عن الزمان) وتظهر الصفات (التي تعبر عن أشكال عارضة تتلبس بها الذوات) . ولما كانت الحروف أدق الذهنيات ، في النشاط العقلي ، فقد جاءت آخر الأمر كروابط فيما بين الكلمات . هذا النمو المتدرج من الحس المتقطع إلى العقل المترابط – أي من الكلمة المفردة إلى الحروف – قلنا هذا النمو هو الذي دفع بالكثيرين ، من علماء اللغة[1] ، إلى قسمه ثلاث مراحل :

أولاً – مرحلة الأسماء التي تعبر عن الأشياء أو الأشخاص .

ثانياً – مرحلة الأفعال ، التي تعبر عما يحدث في الأشياء ، أو عما يفعله الأشخاص .

ثالثاً – مرحلة الحروف ، التي تعبر عن الروابط الكائنة بين الأشياء ، أو عن العلاقات الموجودة بين الأشخاص .

---

١) راجع Henri Delacroix في كتاب Le Langage et la Pensée ص ٣٠٤ – ٣٠٥ باريس Alcan ١٩٢٤ .

تجدر الإشارة ، ههنا ، إلى أن تطور اللغة عند الطفل يعكس ، أيضاً ، تطور الفكر ذاته . الفكر أو الوجدان ينطلق من الشعور بالمادة عن طريق الحواس . ولا يدرك الذهنيات المجردة إلا في المرحلـة الثانية . يبدأ بالجامد ، بالمتحرك ، ثم ينتهي بالروابط . نقول ،إذن، بأن الطفل ينمو متدرجاً من إدراك حسي ، تلقائي، إلى أن يأتيه التروي مع تلك الموهبة ، التي يحلل بها المعقولات ، والمفاهيم ، بشكل منطقي. حينئذ يعبر تعبيراً كاملاً بجمل مفيدة . حينئذ يقول : « وصل والدي إلى البيت » أو « حضر والدي » . لقد نشأت العبارة ـ بابا ـ خلال تدرج الطفل ، بإقصائه للعنصر الذاتي الحسي الفردي . ثم استطاعت هذه العبارة أن تصير بدورها جديرة بالجملة النحوية حين ضمّ فعل إليها . التطور يبدأ من لغة هي رص كلمات لا روابط فيما بينها إلى لغة هي رصف جمل تتماس كلماتها فيما بينها . نقول هذا مع الإشارة إلى أن القطيعة المبرمة لا تحصل أبداً خلال الحياة بين هاتين الطريقتين في التعبير . إن اللغة الذاتية التلقائية لا تستقل عن اللغة النحوية المنطقية . هما في حياة الإنسان متلازمتان .

هذا التطور ، من لغة الحس المفككة المفاصل إلى لغة العقل المرتبطة المفاصل ، ما هو خط واحد ، عند الطفل ، ولكنه متشعب مزدوج. نعني أن الإنسان لا يترك لغة الذات الفردية بعد أن يدرك لغةالمنطق الإجتماعية . هاتان اللغتان (اللغة الحسية واللغة العقلية) يمثلان ، في حياة الإنسان ، شكلين مختلفين من التفكير . والمقصود بالتفكير ، هنا ، مجموعة العادات التي يفتعلها الفكر ، في إشرافه العام على عملياته . أو ، كما يقول بوانكاره ، في الإشراف على لعبة الشطرنج، جملةً

مثلاً على ذلك . لنأخذ الماء . الماء ، في نظر الوجدان الحسي ،

مظهر من مظاهر المادة ، يرضي حاجة عضوية . هو سائل يشرب عند العطش . الماء هنا معزول عن باقي الطبيعة الخارجية . لكنه في نظر الوجدان العقلي مادة طبيعية يمكن ملاحظتها . واختبارها . هذه المادة لها خواصها ، وحركتها ، التي تهيمن عليها قوانين ، معينة ، يمكن دراستها . لذا لا نستطيع أن نفهم الماء ، فهماً عقلانياً ، ما لم نرجع ذلك السيال إلى شبكة المنظومات الطبيعية ، التي ترتبط به وفق علاقات محدودة . الوجدان الأول لا يرى ، في الماء ، غير صورة حسية . قانونه الإرضاء العضوي المباشر . الوجدان الثاني يرى، في الماء ، جزءاً من العالم الخارجي . قانونه الإرضاء الذهني غير المباشر. هذان التفكيران يختلفان في طريقة تأدية الوظيفة . إليك أوجه الإختلاف :

ـ الوجدان الحسي أقرب إلى الحدس، وأشد تأثراً بالإجمالية من الإستنتاج ، أي أن الحدود الوسطى فيه غير واضحة . الوجدان يثب، هنا ، من المقدمات إلى النتائج بقفزة واحدة ، دون أن يقف عبر الطريق .

ـ الوجدان الحسي لا يحفل بالبرهان أو بالتحقق من صحة القضايا. لهذا لا يبحث عن الروابط . نظرته الإجمالية سرعان ما يصاحبها شعور بالطمأنينة . هذا الشعور الهادىء لا يظهر لو كانت كل خطوة في البرهان واجبة .

ـ الوجدان الحسي يستخدم في التفكير صيغاً شخصيةً توجه مجرى التفكير العام .

ـ الوجدان الحسي يلتجىء إلى الإشارات التجاءً كبيراً حتى أن هذه الإشارات تذهب بديلاً عن البرهان في تعزيز الإستنتاج المنطقي.

تلك أهم خصائص الوجدان الحسي . أما خصائص الوجدان المنطقي فهي :

– إنه أقرب إلى الإستنتاج. هويحاول أن يجعل الروابط ،بين القضايا والألفاظ ، صريحة كل الصراحة . (لذا ، إذن ، بالتالي ، حيث ، بناء على ، من أجل ذلك ...)

– إنه يهتم بالحجج والأدلة أكثر من اهتمام الوجدان الحسي بها .

– إنـــه ينزع إلى التحرر من الصيغ الإجمالية ليستعيض عنهـــا بالإستنتاج استعاضة صحيحة .

– إنه يستغني عن الإشارات ، لأنها غير قابلة للمنطق ، ولأنها لا تجدي في البرهان [1] .

إذن وجود الإنسان يقوم على محركين أصيلين فيه : الحس والعقل. هذان المحركان متلازمـــان . لا فاصل بينهما . ولا قطيعة . وقـــد أخطأ بعض الفلاسفة عندما أرادوا القضاء على أحدهما في سبيل الآخر. الحسيون لا يعترفون إلا بأولوية الحس . والعقلانيون لا يعترفون إلا بأولوية العقل . في حين أن حقيقة الإنسان تقوم على المصاهرة بينهما . على تبادل الماوية بينهما في سبيل البقاء . وقد رأينا كيف أنعلم النفس يقر هذه الثنائية المحالفة القائمة على أن الإنسان ملتقىخطين عريضين : الخاص والعام . تلك هي قاعدته الجدلية .

الحس ينصبّ على موضوعه ، بمعزل عن الموضوعات الأخرى ، ويحيطه بكل عنايته ، ويستنفده حتى النهاية . قصير المدى . قصير النفس . لا يقوى على التشعب . ولا يستطيع أن يشمل في نظرته .حيثما

---

1) انظر كتاب Le Langage et la Pensée chez L'Enfant تأليف Jean Piaget ص ٤٣ . عام ١٩٤٨ .

يقع يفعل . وإذا كنا نريد أن نتمثل حساً خالصاً فما لنا إلا أن نتصور الحيوان . هذا المخلوق حس خالص . لذا يعيش فقط في الحاضر . ينصبّ إطلاقاً على الموضوع الذي يرضي حسه . أما الهوامش أو ربط هذا الموضوع بغيره فإنه لا يقوى عليه البتة . الواقع أن التجربة الحسية مشوشة غامضة محدودة في الزمان والمكان . لكل تجربة زمانها ومكانها . اي نطاقها الخاص وكيانها الخاص . انها عالم في حد ذاتها لا علاقة لها بسواها كأنها معلبة في صندوق. لذاهي لا تقوم على ناموس منظم . هذا هو الحس .

لكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فقط تلك الحالة البيولوجية . لقد زود عقلاً من أهم خصائصه أن لا يقف على الموضوعات . وإنما على الروابط القائمة بين الموضوعات . همه أن ينظم ، ويبوب ، ويصنف ، ويربط السابقات باللاحقات . هو كالبنّاء يأخذ الحجارة المبعثرة ، هنا وهناك ، التي يقدمها له الحس. ويرفعها بالتوالي ، وفق تخطيط منظم ، حتى ينتهي إلى الوحدة البنائية . العقل لا يهمه الحجر . تهمه علاقة الحجر بسواه . يذهب إلى ما وراء التجربة الحسية ، التي يقارن بينها وبين سواها ، ليكشف عن نظامها الخفي . هو يربط التجارب المعزولة ، بعضها ببعض ، ليستخرج من جزئياتها منظومات كلية . هذا هو العقل . ولقد جاءت كلمة عقل — في اللغة العربية — حاملة هذا المعنى بالتمام . العقل يفيد الربط ، والضبط ، والإحاطة بـ . عقل الشيء ، أدركه ، أي ربطه بنفسه ، ضبطه ، وأحاط به من جميع نواحيه . يقال عقل الناقة أي ربطها . والعقل لا يقوم بوظيفة الربط إلا إذا كان هناك أشياء تربط. فحواه أن العقل ملكة في النفس ، تنشط حول ربط معطيات أولية ، يقدمها له الحس . هو لا يدل على أشياء . لكنه يربط الأشياء وفق مبادىء

ضرورية حصرها الفلاسفة في بابين نذكرهما باقتضاب :

أولاً مبدأ الهوية . وهو القائل بأن مبدأ الإستنتاج ، أو الإستدلال ، يفرض بقاء الحدود ثابتةً من أول البرهان إلى آخره . وقد عبر الفلاسفة عن هذا المبدأ بقولهم : « ما هو هو » أو « الشيء هو ذاته » أو « الشيء هو عين عينه » . تشعب عن هذا المبدأ مبدآن آخران هما : مبدأ عدم التناقض ومبدأ التضاد . الأول يقول بأن القضيتين لا تكونان صادقتين معاً ولا كاذبتين . الثاني يقول بأن المتضادتين لا تكونان صادقتين معاً .

ثانياً – مبدأ السبب الكافي . وهو القائل بأن لكل حادث قانوناً يوضح حدوثه . لكن لهذا القانون وجهان . من هنا تشعبه إلى مبدأين آخرين: السببية والغائية . الأول يقول بانلكل معلول علة من جنسه. الثاني يقول بان الكائنات تسير كلها نحو غايات معينة .

هذه الثنائية بين العقل والحس (نقصد بين الوجدان المنطقي والوجدان العاطفي) هي عينها التي نجدها ، في اللغة ، بين العامية والفصحى . وهذا يعني أولا أن ازدواجية اللغة امتداد لازدواجية اللطيفة البشرية . ويعني ثانياً أن الازدواجية ، في اللغة ، ليست وقفاً على العربية وحدها . ففي كل لغة لسان عامي ولسان فصيح . لأن الازدواجية دليل من دلائل تحضر الانسان . الهمج وحدهم لا يزاولون الازدواجية ، في لغتهم ، لأنهم محرومون اطلالات غيبيةً على الوجود . أما الشعب الذي يتحضر في تطوره ، فيكون له نظرات ماورائية ودواوين علمية ، فإنه يفرض على لغته المكتوبة ، المنطقية ، أن تختلف عن لغته المحكية ، الذاتية . الشعوب المتوحشة وحدها يمكن أن لا يكون في لغتها ازدواجية صريحة . الشعوب الضاربة في المدنية تسمو بالتجريد . وهذا يتطلب سعة شق ، دون

عداء ، بين الطرازين من الوجدان ، بين العقل والحس . الشعوب المتحضرة لا تحكي كما تكتب ولا تكتب كما تحكي .

الآن أين الفارق بين العامية والفصحى ؟ قبل أن نجيب ، فلسفياً ، عن هذا السؤال ، نريد أن نبدد وهماً عالقاً، في أذهان الناس، بصدد اللغة الفصحى . يعتقد القسم الأكبر أن الفصحى مرادفة للتعقد . وأن القضاء عليها ييسر اللغة العربية . إن الخلط بين التيسير والتغيير (أي بين قضية تربوية ترمي إلى تسهيل اللغة العربية ، وقضية فلسفية ترمي إلى استبدال واحدة بأخرى) هو الذي جعل بعض أهل القلم ، في لبنان ، يبتعدون عن جادة الحق . وقد ظهر هذا الخلط في قول أحدهم :

الصرف ، والنحو بصورة خاصة ، نوع من التجريد . نوع من الفلسفة . نوع من المنطق . ولا التجريد ، ولا الفلسفة ، ولا المنطق ، من الأمور التي تعلم للأولاد . أولادنا الصغار لا يفهمون ، ولا يستطيعون إدراك المصطلحات النحوية (١) .

نقر صاحب هذا القول في المطالبة بتيسير اللغة الفصحى وفق مستلزمات عصرنا العشريني . الفصحى اليوم يجب أن تختلف عن لغة الزمخشري والحريري . عندما نرى المشاحنات اللغوية ، التي كانت تحدث في الماضي ، حول «فاظت نفس الميت» أو «فاضت نفسه» بالظاء أو بالضاد . . . حول «قوعز الديك» أو «قنعز الديك» ...وحول «شتان ما بين» أو « شتان بين» أو «شتان بين هذا وغيره» . . . أجل ! عندما نرى كيف كان الأقدمون يذبحون وقتهم ، في سبيل مماحكات كهذه ، ونرى أن معظم النحو قائم على مثل ذلك التطريز ، لا يسعنا

---

١) راجع في «الأبحاث» مقال أنيس فريحة . السنة ٩ الجزء الأول . آذار ١٩٥٦ ص ٤٢ بيروت .

إلا أن ننادي مع المنادين بضرورة تيسير اللغة العربية ، وتطويرها . لكن ماهي العلاقة بين نهج تربوي نقره كلنا ومثل هذا القول :

> نؤمن بإخلاص أن حل المشكلة اللغوية الجذري يبدأ من هذه النقطة : القضاء على الازدواجية ، والاعتراف بلغة واحدة للكلام ، والكتابة ، والخطابة (١).

هذا الخلط إذن بين التيسير والتغيير هو الذي أضل العاميين . لم يدركوا أن تيسير الفصحى لا يمكن أن يأتي عن طريق القضاء عليها . وهكذا نعود إلى السؤال ، المطروح فوق هذا الكلام ، ماهو الفرق بين العامية والفصحى ؟ أين ينحصر الخلاف ؟

نعلم أن اللغة تقوم على عناصر ثلاثة : الأصوات ، ثم الألفاظ ، فالجمل . وهي المراحل ذاتها ، التي يعبُر فيها الطفل ، صعداً ، نحو الانسان الراشد . المرحلة الصوتية ، ثم المرحلة اللفظية ، فالمرحلة المنطقية ، التي يستعمل فيها جملاً مفيدةً . ونعلم أن الذي يحدد الجملة كون يمسك ألفاظها بعضها برقاب بعض . هذا المسك هو النحو الذي فيه يقوم الفارق الأخير بين العامية والفصحى . أعني في أن ترتب الألفاظ بعضها مع بعض ترتيباً يتجه نحو الاستقرار : إما بأن يفرض النحو نمطاً لا يتغير ، وإما بأن تكون العادة قد جرت باتخاذ ترتيب معين ، في كل الجمل التي تتشابه .

الفارق ، إذن ، ليس في الأصوات . ولا في الألفاظ . الأصوات والألفاظ ليست في حد ذاتها عامية ولا فصحى . من الخطأ حصر الفارق العامية والفصحى في الحروف والألفاظ. الحرف لا يكوّن ضماناً كافياً. ولا اللفظ أيضاً. إن الاستعمال هو الذي يجعل الحرف أو اللفظ

---

١) راجع في «الأبحاث» مقال أنيس فريحة . السنة ٩ الجزء الأول . آذار ١٩٥٦ . ص ٤٢ بيروت .

مقبولاً في اللغة . لذا كان يُرجع دائماً إلى فطاحل الشعر ، والنثر ، لاعتبار كلمة ما فصيحة أو غير فصيحة . من هنا تزمت الأصمعي ، الذي لم يأخذ إلا ما أجمع عليه علماء اللغة ، أو فصحاء العرب . كان يضيق دائرة الأخذ ، كثيراً ، ولا يجيز إلا أفصح اللغات . وأفصح اللغات ، في نظره ، ما أجمع عليه علماء العرب . كان ، في مقارناته اللغوية ، يفضل شعراء الجاهلية ، وخطباءهم ، على من جاء بعدهم .

يقول أبو حاتم السجستاني : سألت الأصمعي : أتقول في التهديد «ابرق وارعد» ؟ قال : لا ، لست أقول ذلك إلا ان أرى البرق ، وأسمع الرعد . قلت لقد قال الشاعر الكميت :

ابرق وارعد يا يزيـــد   فما وعيدك لي بضائر

قال : الكميت جرمقاني من أهل الموصل ، ليس بحجة ؛ ولكن الحجة هو الذي يقول :

إذا جاوزت من ذات عرق ثنية   فقل لأبي قابوس ماشئت فارعد

وهو شاعر جاهلي ، وشاعرك هذا متأخر ، لا يؤخذ بقوله . قال أبو حاتم : فأتيت أبا زيد الأنصاري ، وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد : فعلت السماء ؟ قلت : «رعدت وبرقت» . قلت : فمن التهديد ؟ قال «رعد وبرق ، وارعد وابرق» فأجاز اللغتين . ثم سألت اعرابياً فصيحاً عن ذلك فأجاز اللغتين أيضاً . . . ولم يجز الأصمعي إلا لغة واحدة [1] .

نقول من الخطأ جداً تحديد الكلمة الفصحى بما يجمع الناس عليه . الاجماع ليس بالحاجة الكافية . وهو يضيق الخناق على

---

١) الأمالي ، تاليف أبو علي القالي ، ج ١، ص ٩٦ ، القاهرة ١٣٥٣ ﻫ .

اللغة ، ولا يفسح أمامها آفاق التجدد ، لأن اللغة الفصحى ذات مفهوم أبعد ، وأعمق ، من الاجماع بين علماء . ذات سلطة تستمدها من العقل ذاته الذي لا يمكن أن يتغير قانون من قوانينه . إن الرجوع إلى العقل البشري ، وفق ما رسمناه، أقوى ضمان في سبيل تحديد اللغة الفصحى . العقل يقول بوجود نظام للجملة لا يمكن تغييره . هو لا يبحث في الحروف ، والألفاظ ، لكنه يبحث في العامل . والعامل هو الاعراب .

في ضوء هذا التعريف للفصحى المبنيّ على النحو أي الاعراب تصبح كل كلمة قابلة لأن تصير فصيحة ، شرط أن تدخل في جملة مفيدة . هي عامية ، إذا استعملت في ترتيب ، يقوم على الكلمة . وهي فصيحة ، إذا استعملت في ترتيب ، يقوم على الجملة ، وارتبطت بسابقات لها ولاحقات ، بحيث تنشأ الوحدة الاعرابية ، أو النحوية . إن كلمة «صاج» — في خاص مبناها — ليست عامية ولا فصحى . هي عامية في «الصاجْ عالنّارْ». وهي فصحى في «الصاجُ على النّارِ» . لا اعراب في العامية، لأنها بنت الحواس ، والاحساسات تخرج فيها كالقذائف ، مستقلة بعضها عن بعض . هي لا تقبل العوامل . لكن العقل يميل ، أصلاً ، إلى الثبات والاستقرار ، لأنه يرتكز ، جوهراً ، على مبدأي الهوية والسبب الكافي . قوانين العقل راسخة . وحجتها انها من صميم اللطيفة البشرية لا من الاجماع الذي يتفق عليه بين العلماء .

العامية لغة الحس . لغة فجائية ، تلقائية ، انفعالية . والانفعال بيولوجي الطابع ، لا يتيسر له وقت ، ولا فراغ ، كي يعمل الروية . لذا تطفو العامية على سطح الوجدان فلا تبالي بالعوامل النحوية وانما تكتفي بإبراز ترويسات نفسياتنا. . ترويسات تبين

وحدها في الامامية . العامية خفيفة الخطى ، تستمد زخمها الأكبر من الايحاءات ، والاشارات المختصرة البسيطة ، التي ترافقها .

الفصحى لغة العقل . لغة النحت ، والروية ، والامعان . العقل يتبع نظام الالصاق ، أو التبعية ، أي انه يلجأ — في اللغة المكتوبة — إلى الروابط ، والعوامل النحوية ، لأنه مطبوع على التفسير والتحليل . مطبوع على الدقة ، والعلاقات ، والنسب . ولديه من الوقت ما ينفقه في الإمعان ، والتحضير ، إذ يبحث عن صلة آخر الكلمات بعضها ببعض ، لأنه قائم بالأساس على الجملة .

نظامه نظام المط والتوسع . «ويشْ بدّك» في العامية تصبح «أيُ شيء بودّكَ» في الفصحى . «جابو» في العامية تصبح «جاء به» في الفصحى . «كرمالك» في العامية تصبح «أفعل ذلك كرامةً لك» في الفصحى . «يله لينا» في العامية تصبح «ياالله عجل الينا» في الفصحى . وهي كلمة عامية مركبة من يا للنداء ، ولفظة الجلالة وأصلها الله ، ولينا مختزلة من الينا . نقول في اللغة الفصحى :

إن الرجل الذي تراه هناك — جالساً على الرمل — هو ذلك الذي قابلته بالأمس عند المحطة .

هذه العبارة الفصيحة تنقلب في العامية كما يلي :

الرجال يلي شايفو هونيك — جالس عالرمل — هو يلي قابلتو مبارح عالمحطة .

واضح أن الفارق لا ينحصر في الكلمات ، ذاتها ، بل في آخر الكلمات . أي في الاعراب . العامية لا تقبل الحركات ، ولذا لا تتركب من جمل ، بمعنى النحو . في العامية ألفاظ ذات معنى . في الفصحى جمل ذات معنى .

في العامية ترص الوجدانيات كالقذائف والمتفجرات . في الفصحى ترصف ، جنباً إلى جنب ، استدلالات منطقية . في العامية لا نعثر

على الجملة ، بالمعنى النحوي ، بل تتلاشى الروابط والعوامل ، فتبرز الصورة الكلامية كتلةً واحدةً . وتتفجر كالمفرقعات . في الفصحى تحتمل الوجدانيات المط والتوسع في الحركات فتتتابع وتتناسب وتتناسق . نظام العامية نظام الانضغاط ، هذا ديوان الحس . نظام الفصحى نظام الانفلاش ، هذا ديوان العقل . العامية تترك لذهن السامع أن يدرك بالحدس نوع الصلة بين الكلمات . الفصحى تطبع الفكرة بطابع القضية المنطقية ، لأن الفكر يطلب صياغة تحليلية ، قدر ما يرتفع في سماء التجريد ، ويبعد ، ثم يندر . يقول فندريس :

تتميز لغة الكلام بأنها تقتصر على الاهتمام بإبراز رؤوس الفكر . هي وحدها التي تطفو على الجملة . وتتحكم فيها . أما العلاقات المنطقية ، التي تربط الكلمات بعضها ببعض ، وتربط أجزاء الجملة بعضها ببعض ، فاما أن يدل عليها دلالة جزئية عن طريق التنغيم والاشارة ، إذا اقتضى الحال ، واما أن لايدل عليها مطلقاً ، ويترك للذهن عناء استنتاجها . هذه اللغة المتكلمة تقترب من اللغة التلقائية . ويطلق هذا الاسم على اللغة ، التي تنفجر بصورة عفوية من النفس ، تحت تأثير انفعال شديد . في هذه الحالة ، يضع المتكلم الألفاظ الهامة في القمة ، إذ لا يتيسر وقت ولا فراغ ، يجعلانه يطابق فكرته على تلك القواعد الصارمة ، قواعد اللغة المتروية المنتظمة . على هذا النحو تتعارض لغة الحس مع لغة العقل (١) .

من هنا تنبهُ الكثيرين من علماء اللغة ، المتبصرين في أمور الفلسفة أيضاً ، إلى هذه الازدواجية في نفس الانسان . الأمر الذي يحتم ، على كل لغة بشرية ، ثنائية العامية والفصحى . لاشك في أن هذه الثنائية على درجات . لكنها كائنة في لغات البشر كلهم . يقول فندريس ، في موضع آخر من الكتاب عينه ، مايلي :

ينحصر الفرق الأساسي بين اللغة العاطفية واللغة المنطقية في تكوين الجملة . هذا الفرق يبين تماماً عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المحكية . هاتان اللغتان ، المكتوبة

---

١) انظر كتاب Le Langage تأليف ، Vendryès ، ص ١٩٤.

والمحكية ، تبتعدان في الفرنسية إحداهما عن الأخرى ، إلى حد أن الافرنسيين لا يتكلمون إطلاقاً كما يكتبون ، ولا يكتبون كما يتكلمون ، إلا نادراً . لكل حالة اختلاف في ترتيب الكلمات إلى جانب اختلاف المفردات . إن الترتيب المنطقي ، الذي تسلك فيه كلمات الجملة المكتوبة ، يتعطل دائماً في الجملة المحكية ، قليلا أو كثيراً . فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجمل :

Il faut venir vite. Quant à moi, je n'est pas le temps de penser à cette affaire. Cette mère déteste son enfant.

هذه الجمل تتخذ – معظم الأحايين – في اللغة المحكية ، صيغة مختلفة كل الاختلاف فيقال :

Venez vite. Du temps, voyons, est-ce que j'en ai, moi, pour penser à cete affaire-là. Son enfant ! mais elle le déteste, cette mère. (1)

وقد جاء في كلام بركهارد ما يلي :

وتجد اختلافاً كبيراً لا ريب في لهجات اللغة العربية العامية أكثر مما في أية لغة أخرى على ما يحتمل . لكنه لا يصعب عليك أن تفهمها جميعاً إذا ما تعلمت إحداها . وذلك على الرغم من اتساع البلدان ، التي يتكلم أهلوها بها ، وهي الواقعة بين مدينة فعادر (الصويرة) ومدينة مسقط . وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثير في اختلاف تلك اللهجات التي هي عذبة في أودية مصر والعراق الدنيا وجافة في جبال بلاد البربر وسورية . وأعظم فرق كما أعلم هو مابين لهجة المغاربة في مراكش ولهجة الأعراب في مكة في الحجاز . لكن هذا الفرق بين تينك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحي سوآب (جنوب ألمانيا) عن لهجة فلاحي سكسونية (شمالي ألمانيا) (٢)

قلنا بأن العقل ملكة فطرية في الانسان . وقلنا بأن وظيفته تنحصر في ربط الأشياء ، لا في الأشياء ذاتها ، بطريقة ترتيبية تتماسك حلقاتها بعضها برقاب بعض. وقلنا أيضاً بأن هذا الميل إلى التنظيم

---

١) Le Langage ، تأليف Vendryès ، ص ١٧١ .

٢) ذكرت في كتاب غوستاف لوبون «حضارة العرب»، ص ٥٣٢، ترجمة عادل زعيتر .

يبرز في مبدأين كبيرين : مبدأ الهوية (الهوهو) ومبدأ السبب الكافي (السببية والغائية) . وقد ظهرت تلك العقلانية في الاعراب من اللغة . أي في العامل .

العامل هو الذي يحدث أثراً في غيره . هو الذي يؤثر في ما يليه فيرفع مابعده أو ينصبه أو يجزمه أو يجره . مثلاً الفعل : إنه يرفع الفاعل وينصب المفعول به . المبتدأ : إنه يرفع الخبر . أدوات الجزم : انها تجزم الفعل المضارع . وحروف الجر : إنها تخفض ما يليها من الأسماء . هذا هو العامل . مثَله مثَل العلة في الظواهر الطبيعية .

المعمول هو المتأثر اي المنفعل الذي يقبل اثر غيره فيه . الذي يؤثر فيه ما قبله فيرفعه ، اوينصبه ، او يجره ، او يجزمه ، كالفاعل ، والمفعول ، والمضاف اليه ، وغير ذلك . هذا هو المعمول . مثَله مثَل المعلول في الظواهر الطبيعية . فما يحدث تغيراً في غيره يسمى العامل وما يتغير آخره بالعامل يسمى المعمول . هذه القياسات هي ذاتها التي يستحر بها العقل عقلانياً في غير ميادين اللغة . وهي نشاطات من صماصيم كياننا الوجداني . بدونها لا نتفهم ما يدور حولنا ولا نكشف عن اسرار الوجود .

ما من قوة في العالم تستطيع ان تلغي الفاعل من النحو . القضية ليست قضية اجماع بين العلماء . هناك قوام انطولوجي ، في العقل ، يفرض ذاته بضراوة . اذ ليس عبثاً وجدت مقاييس اللغة في الاوضاع النحوية . وليس عبثاً كان اعراب التثنية على خلاف اعراب الجر . وليس عبثاً كانت الجملة على اربعة اضرب . وليس عبثاً كان لا بد لكل جملة ، وقعت خبر المبتدا ، من ان تشتمل فيها على ذكر يعود الى المبتدا . اجل ! ليست عبثاً تلك العوامل التي اقتضت ان تجري

على ما اجريت عليه . ان الذي يحيط بحقائق الاعراب ، ويوفي كل باب منها حقه ، ويحكمه احكاماً شديداً ، يرى ان وراء تلك المقاييس وضعاً لايمكن ان يزول . فليس اجماع العلماء هو الذي جعل ان يكون ثمة فاعل . ومفعول به . وحال . ومجرور . وغيره من الاوضاع النحوية . قد نقبل ، على اساس الاجماع ، هذه الكلمة او تلك ، باعتبار اللطافة في اللفظ ، فنقول «فاضت نفسه» لا «فاظت نفسه» . لكننا لا نستطيع ان نقبل الفاعل ، او ان نرفضه ، على اساس الاجماع او عدم الاجماع . هل بامكاننا ان نرفض ترتيب الابجدية وفق الطريقة التي اجري عليها ؟ هكذا في النحو . نحن عاجزون عن ان نغير وضعاً واحداً . سبب ذلك ان المرء موجود ليفهم ولا سبيل الى الفهم الا عن طريق العقل . قد لا يؤدي به عقله الى المطلق الذي يريده . المهم انه مدفوع سليقياً الى الفهم . ربما كانت هذه مأساته . أن يندفع الى الفهم ، وان لا يستطيع الفهم ، بموجب ذلك الاندفاع ذاته . يبقى انه حيوان عاقل .

لنفرض ان هذه المقاييس النحوية قد الغيت من لغة العرب . اتستطيع ان تتصور ممكناً ، بعد ذلك ، حدوث فهم الكلمات ؟ اللغة ليست حروفاً بمعزل عن الالفاظ . ولا الفاظاً بمعزل عن الجمل . ولا جملاً بمعزل عن البيان . اللغة هي كل هذا دفعةً . فاذا قضينا على الروابط ... على العوامل ... اي على المقاييس النحوية ... ماذا يبقى من اللغة ؟ لا شيء . ندور اذ ذاك في ظلام بهيم . يقول الامام عبد القادر الجرجاني ، بصدد النحو ، ما يلي :

إن الألفاظ مغلقة على معانيها ، حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها . وإن الأغراض كامنة فيها ، حتى يكون هو المستخرج لها . وإنه المعيار ، الذي لا يتبين نقصان كلام ، ورجحانه ، حتى يعرض . والمقياس ، الذي لا يعرف

صحيح من سقيم ، حتى يرجع اليه . ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه . وإلا من غالط في الحقائق نفسه . وإذا كان الأمر كذلك ، فليت شعري ، ماعذر من تهاون به . وزهد فيه . ولم ير أن يستسقيه من مصبه . ويأخذه من معدنه ؟ (١)

لا شك ان في النحو فضول قول . فيه ما هو متكلف . ما يجشم الفكر . فيه من المسائل العويصة ما لا يعود بطائل على ذهن السامع . نحن نعلم ان في النحو مثل هذا التعجيز . ولا نلوم الذين لا ينظرون فيه ولا يعنون به . وليس يهمنا امره ، فليقولوا فيه ما يشاؤون ، وليهملوه اذا ارادوا . لكننا نرفض ان يضرب عرض الحائط بالنحو كله . اذ لا فهم بدون النظم ، ولا نظم الا ان تضع الكلمة في المحل ، الذي يقتضيه علم النحو . مقاييس الاعراب ليست كلها من ضرب التعجيز . ما كان من هذا القبيل ، مجه الذوق السليم ، وترك في سبيل الرياضة المترفة . ونحن نوافق لتيسير العربية على شطب هذه الاوضاع النحوية المهلكة . اما ان نتجاوز التيسير ، الى القضاء على ثنائية العامية والفصحى ، فانه امر خطير للغاية . ذلك يتناول قوام العقل البشري ذاته . وهذا منتهى المغامرة في الاعتباطية . منتهى العبث بقاعدة الحياة . بمعطيات الوجدان البديهية .

تلك الثنائية ، بين العامية والفصحى ، هي امتداد اذن لثنائية متأصلة ، في النفس البشرية . هي تعكس المحركين ، اللذين يقوم عليهما الكيان الانساني ، نعني الحس والعقل . والتطور الذي تتاخ له هذه الثنائية ، في شعبتيها ، يسير من الرص الى الرصف . من الانضغاط الى الانبساط . من الارضاء المباشر للحس الى التحليل المنطقي الذي يريده العقل . الثنائية تتطور من الصوت ، الى اللفظ ،

---

١) دلائل الاعجاز ، ص ٢٤ ، القاهرة ١٣٣١ هـ

الى الجملة الاعرابية ، دون ان تلغى من الوجود . هذا هو ناموس الحياة الصاعد .

اذا استعرضنا تاريخ اللغات ، رأينا هذا التطور ذاته في شعبتيه ، يتجه من التلقائية المتغيرة ... اي من الفطرة المترجرجة ... الى الاستقرار المقعَّد . رأيناه يتجه من العامية الفردية الى الفصحى المشتركة المنَومَسة . الحياة ذاتها تفرض المجتمعية التي تحد من الفردية وتركز وجود الانسان على قاعدة التفاهم المتبادل . على اساس الروابط والعلاقات . قيمة الانسان في المجتمع هي بالنسبة الى غيره من الناس . وقد دلت جميع الابحاث الفلسفية الى ان المرحلة الاجتماعية هي آخر المراحل واسماها التي يتطور نحوها الانسان . ولا يمكن ان تقوم حياة اجتماعية بدون لغة مقعّدة ، لأن القاعدة تعكس الجوهر الكائن في كل واحد ، فيحصل عن طريقها التفاهم المتبادل بين افراد المجتمع . الحس لا يُجَمْعِنُ . العقل يُجَمْعِنُ . لذا زُوِّد الانسانُ عقلاً يبحث في المبادىء العامة . والقانون هو دائماً مبدأ عام . ازدهار الحياة الاجتماعية لا يستطيع ان يقوم على اللهجات . انه يفرض لغة مشتركة ، لها قواعدها ، ودواوينها ، وهذا لا يمكن ان يحصل بدون النحو. وهل الفصحى غير اللغة المشتركة المرتكزة على معطيات عقلانية ؟

يقول ستيوارت ضود .

نعرف جيداً أن الشعب ينطق بلغة واحدة ، إذا ما فصلته حواجز كالبحار ، والصحارى ، وسلاسل الجبال ، أو غيرها ، واستمر هذا الفصل قروناً ، تنقسم لغته إلى لهجات مختلفة . قد تكون كتابتهم واحدة ، ولكن التلفظ يكون مختلفاً ، كما هي الحال في اللغة الصينية واللغة العربية . بيد أن هذه اللهجات قد تمتزج ، وتكون لغة واحدة مرة ثانية ، إذا ما تم الاتصال بين الأقطار التي تسود فيها . وبالفعل فإننا نجد اليوم أن لهجات انكلترا آخذة في الزوال ، كما أن

الراديو يعد قوة جديدة فعالة في توحيد اللهجات . والخلاصة انه كلما ازداد الاتصال بين أجزاء العالم بواسطة وسائل المواصلات الحديثة، كالسفر، والراديو، والسينما ، والتلفون ، توقعنا أن تزول اللهجات ، وتتوحد اللغات تدريجياً(١) .

لقد ادرك ستيوارت ضود واجب نومسة اللغة كلما تحضر الانسان . كلما ازدهرت الحياة الاجتماعية . وهذا ما يشعر به عالمنا العشريني . سيما العالم العربي . ولا بد لنا ، في هذا المجال ، من ان نستعرض تاريخ بعض اللغات ، شاهداً على صحة المقال .

— اللغة الهلينستية (اي لغة بلاد الاغريق القديمة) . هي بالاساس اللهجة الاتيكية التي ظلت حتى القرن الخامس لغة محلية لاقليم منعزل . قيام الامبراطورية المقدونية مكن هذه اللهجة من ان تطغى على باقي اللهجات . وان تصبح اداة للتفكير عند جميع الاغريقيين . اللغة الاغريقية هي اللهجة الاتيكية بعد ان اصبحت هذه الاخيرة اللغة المشتركة التي سادت على اللهجات المحلية .

— اللغة اللاتينية . كانت لغة روما قبل كل شيء . ثم اصبحت بعد ذلك لغة ايطاليا المشتركة ومن ثم لغة العالم الغربي كله . اما السبب في هذا الانتشار فقد كانت اهمية روما السياسية .

— اللغة الافرنسية . هي تطوير للهجة الايل دي فرانس (L'Ile de France) ويعود سبب هذا التطور الى اهمية باريس السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— اللغة الاسبانية . خرجت من لهجة في الشمال (نعني من لهجة قسطلت القديمة) . وقد صارت القسطلانية اللغة الادبية في القرن الثالث عشر بفضل الفونس العاشر الذي كان يحتل بالنسبة الى اسبانيا

---

١) العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي، وجه ٢٩٥، ترجمة فريد نجار ، دار الكتاب ، بيروت ١٩٤٧ .

مركز دانتي بالنسبة الى ايطاليا . اللغة الاسبانية المشتركة هي نتيجة لتفوق قسطلت في ميداني السياسة والادب .

– اللغة الانجليزية المشتركة ظهرت في لندن التي كانت ملتقى لمختلف اللهجات . هنا ايضاً يعود تطوير تلك اللهجة ، بصورة نسبية ، الى اهمية العاصمة . لقد اخذت لندن تتلقى المهاجرين على اختلافهم من كل الاقاليم . هذه الهجرة الاقليمية انعشت تبادل السكان بين لندن والارياف فادى ذلك الى انتشار لغة مشتركة .

– اللغة الالمانية تدين بانتشارها القوي الى مارتن لوثر باعث حركة الاصلاح . لقد تبين لمارتن لوثر ، في القرن الرابع عشر ، ان هناك ميلاً لدى المستشاريات الالمانية لاتخاذ لغة مشتركة ، تختلف عن اللهجات الاقليمية . فسنت المستشارية الامبراطورية هذا الميل مستعملةً لغةً واحدةً في جميع الاقاليم التي كانت تحت سلطانها .

– اللغة الروسية هي اللغة السلافونية التي تقوم على اساس اللهجات السلافية الجنوبية . لم تتحرر الروسية من الاثر السلوفاني ، الا بعد ان جاء بطرس الاكبر ، فحذا حذو لغات اوروبا الغربية ، سيما الافرنسية والالمانية .

ماذا نستنتج من هذا الاستعراض الوجيز لبعض اللغات العالمية ؟ نستنتج ان اللغة المشتركة (نقصد اللغة المقعّدة) هي لهجة في البدء سلطتها الظروف السياسية ، او الاقتصادية ، او ظهور عبقرية فذة ، على اللهجات المجاورة ، فابتلعتها ، واصبحت اللغة المشتركة التي تكتب ، بصورة منتظمة ، في كل مكان . اللغة تتطور من نطاق الحس الضيق الى نطاق العقل الواسع . من الخاص الى العام بفضل الازدهار الحضاري . تتطور من رطانة محلية الى لغة معقلنة . الى التجريد الذي هو بمثابة انعكاس للضمير الآدمي . الانسان البدائي

اقل قابلية للتجريد من الانسان المتحضر لان ظروف الحضارة تنقل الفكر من الاعتبارات الخاصة الى الاعتبارات المجردة .

اذا رجعنا الى ما يقوله علم اللغة رأينا ان القسم الاكبر من الالفاظ — لا سيما الافعال — يعبر عن مواجيد حسية ومواجيد معنوية . مثلاً «عَقَلَ» . ربما قصدنا بهذا الفعل الدلالة الحسية ، نحو «عقلتُ الناقةَ» اي ربطتها ... او الدلالة المعنوية ، نحو «عقلتُ الافكارَ» اي فهمتها . ويثبت علم اللغة ، مستنداً الى ناموس التطور الصاعد من الخاص الى العام ، ان احدى هاتين الدلالتين هي الاصلية الحقيقية ، والاخرى هي الفرعية المجازية . ولا بد من ان تكون الحسية هي البادئة كما يؤكد ذلك علم نفس الطفل . هذا العلم يرينا ان المحسوسات هي التي تستلفت انتباه الطفل اولاً . وهي سابقة في وجدانه للمجازيات اللاحقة . الطفل لا يستطيع ان يجرد . عالم الحواس عالمه . وقد بان لنا ان الاضمار في اللغة هو اسلوبه التعبيري بادىء بدء . اضف الى هذا انه لا يحتاج ، في دائرته ، الا الى المواجيد الحسية .

هكذا قل عن الانسانية التي هي صورة مكبرة عن الطفل . لم تكن الانسانية بحاجة ، في اول عهدها ، الا الى المواجيد الحسية . فاذا استعمل الشعب فعل «قطع» لم يقصد به الا الفعل الحسي . اي قطع خشبة مثلاً . لكن الحياة ليست شيئاً جامداً . هي حركة تتطور . وتطورها لايكون افقياً ، على وتيرة واحدة ، وانما يصعد تقدمياً من الاقل الى الاكثر . من الحس الى العقل . من الخاص الى العام . من الفرد الى المجموع . وعلى هذا الاساس ، نرى البشرية ترتقي ، فترتقي معها تصوراتها . من هنا حدوث المعاني الجديدة . المعاني المجازية التي لا تكون على خلاف مع الاولى بل في ابتداء منها

وامتداداً لها . فمن «قَطَعَ الخشبة» ننتقل الى «قَطَعَ في الامر» اي جزم . ومن «عَقَلْتُ الناقة» الى «عَقَلْتُ الكليات». ومن «افصح اللبن» اي زالت رغوته الى «افصح عن نياته» اي ابانها .

نقول بعد هذا ، استنتاجاً لما تقدم ، ان اللغة المنحطة هي التي تظل في دلالاتها ، على صعيد المواجيد الحسية . اللغات الدنيا تقل فيها الدلالات المعنوية المجازية . هذه الدلالات لا تحدث على اساس اللهجة . ولا تحصل في لغات عامية لا قواعد لها ولا نواميس . نها دليل صقل في الذهن ، وتنعم في التفكير ، ورخاء في العقل . دليل تحضر ناتج عن الامعان في الحياة الاجتماعية . وهي امور لا يمكن ان تتركز الا بايجاد النواميس العامة . من هنا كان التحضر يسير ، جنباً الى جنب ، مع تطور اللغة من الحسيات الى المجازيات . من اللاقاعدة الى الاعراب القائم على العامل والمعمول . هذا التطور هو الثنائية عينها التي نجدها بين العامية والفصحى . هو ذلك الفارق في النحو الذي يجعل العامية عامية والفصحى فصحى . القضية اذن هي ابعد بكثير من اجماع بين العلماء. ابعد بكثير من مسائل عويصة في بعض القواعد . التيسير واجب شرط ان يحترم المعطيات الاولية في كيان وجداننا البشري .

هل شذت اللغة العربية عن القاعدة التي جرت عليها باقي اللغات الانفة الذكر ؟ كلا ! ما كان بوسعها ان تسير الا في خطى الناموس عينه . لقد اخرجها الاسلام من قريش حتى صارت لغة حضارة على الاطلاق . لغة علم . لغة فكر مكتسح . صارت لغة جميع اقطار المدنية الاسلامية . صارت لسان سدة الملك ، ولغة الثقافة العالية ، والادب المجلو ، والدين ، والفلسفة . صارت نموذجاً مفروضاً ومثلاً اعلى يحتذيه كل كاتب عربي . كان من الطبيعي ، والحالة هذه ،

ان تتعقلن . ان تتنحون .

اما تاريخ بداية النحو فانه صريح في سجله . وهو يعكس لنا اكثر من اهتمام لغوي بالمعنى القاموسي الضيق . يعكس لنا فكراً عربياً يتسع ويجرد . قال ابو الاسود الدؤلي :

دخلت على أمير المؤمنين علي – عليه السلام – فرأيته مطرقاً مفكراً . فقلت فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ فقال : سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية . فقلت له : إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربية. ثم أتيته بعد أيام ، فألقى إلي صحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام كله اسم ، وفعل، وحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى . والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى . والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .

ثم قال : تتبعه ، وزد فيه ما وقع لك ، واعلم أن الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ماليس بمضمر ولا ظاهر . فجمعت أشياء ، وعرضتها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرت منها : إن ، وأن ، وليت ، ولعل ، ولم أذكر لكن . فقال : لم تركتها ؟ فقلت : لم أحسبها منها :فقال : بلى هي منها .
هذا هو الأشهر من ابتداء النحو (١).

يتبين لنا ان وضع النحو لم يكن وليد المصادفة وبإجماع من العلماء . الحالة الاجتماعية ، يومذاك (نعني درجة الحضارة) هي التي فرضت صنع كتاب في اصول العربية . وكأني بامير المؤمنين عليّ يقول : في اصول اللغة عامة .

كان التطور قد دفع المجتمع العربي الى مستوى من التفكير العالي بحيث لم يعد جائزاً فيه اللحن الذي يعتبر تجديفاً على ديوان العقل .

---

١) أنباه الرواة في أنباه النحاة ، تأليف القفطي، الجزء الأول، ص ٤ القاهرة ١٩٥٠ .

على قدسيته . اللحن في اللغة تخريب لقوانين الفكر المجرد . كلما سما الفكر ، في عالم التذهين ... في عالم الدين ، والفلسفة ، والعلم ، والادب ... استلزم ما يضبطه كي يتحكم في سير الزمان الهروب .

قال عليّ لابي الاسود الدؤلي: «سمعت لحناً ببلدكم» . وهو دليل ان المجتمع العربي قد دخل مرحلة التحضير والتجريد الأكمل . العامية لا تبالي باللحن ، ولا يهمها مثل هذا التخريب . اللحن هو انحراف عن الاعراب . ولا اعراب في العامية . اما الابتهال الى الله على صعيد الاسلام ... اما تلاوة القرآن .. اما معالجة كبرى القضايا الوجدانية ... فهي امور فكرية لا تسمح مطلقاً ان تنعكس في لغة غير منحوتة . لذا انتفض عليّ حين سمع لحناً ببلد ابي الاسود .

وكأني بهذا الاخير قد شعر ان اللغة لا تبقى عبر الزمان اذا كانت خالية من نحو . من تقعيد على اساس الفروض العقلانية . العقل وحده لا يخضع لتقلبات الزمان . انه الثابت . نواميسه فوق الحيلولة . شاملة ، مطلقة . اجاب ابو الاسود ، على الفور ، قائلاً : ان فعلت هذا ابقيت فينا هذه اللغة . ثم بدأ علي في وضع النحو . وهي لعمري بداية فلسفية صرف .

بدأ علي بتقسيم الاشياء الى ظاهر ، ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر . ذاك الظاهر هو الحسيّ الذي يقع تحت اوامر الجسم . وهذا المضمر هو العقلاني الذي يدخل في حساب التجريد . اما الشيء البين البين (الذي ليس بظاهر ولا بمضمر) فهو ضابط الارتباط بين هاتين الحافتين المتطرفتين .

يقابل هذا التقسيم الثلاثي للمواجيد تقسيم ثلاثي للكلام الذي يعبر عن هذه المواجيد . قال عليّ : الكلام اسم ، وفعل ، وحرف . الاسم ما انبأ عن المسمّى ، والفعل ما انبأ عن حركة المسمّى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. كأني بعليّ ، وهو يقسم المواجيد،

قد جمع بين كل المدارس الفلسفية : المادية ، والروحية ، والمدرحية .

اجل ! لم يستطع امير المؤمنين ، عليّ ، ان يضع كتاباً في النحو ، اي في اصول العربية ، ما لم يبنه على قواعد انطولوجية . النحو يدرس العوامل . لكل محل من الاعراب عامل اساسي . يعني سبب . هذا هو قانون السببية الذي يقوم عليه نشاط العقل رمةً . كما في العقل كذلك في الاعراب . الاثنان متكافئان .

روي ايضاً عن ابي الاسود ، قال : دخلت على امير المؤمنين ، علي بن ابي طالب – عليه السلام – فاخرج لي رقعة فيها الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى . فقلت ما دعاك الى هذا ؟ قال : رأيت فساداً في كلام بعض اهلي . فاحببت ان ارسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ . فاخذ ابو الاسود النحو عن علي – عليه السلام – ولم يظهره لأحد (١)

واضح بعد ذلك اين يكمن خطأ الذين ينادون بالعامية . هم يرفضون التسليم بثنائية الحياة البشرية . وبكون اللغة امتداداً لهذه الثنائية . انهم يكتفون بوجه واحد من الثنائية . وبذلك يرجعون اعتباطاً العقل الى الحس الذي يتفجر تلقائياً تحت تاثير الشعور العفوي .

اما الواقع الصراح فهو ان العامية والفصحى من قلب الحياة . وما كان من قلبها لا بد منه اطلاقاً . من هنا قولنا بان للعامية فلكها وللفصحى فلكها . للعامية ادبها وللفصحى ادبها . لذا لا نميل الى القضاء على احداهما في سبيل الاخرى . فلا نلغي العامية في سبيل

---

١) القفطي في أنباء الرواة ، ص ٥ .

الفصحى ولا الفصحى في سبيل العامية . لان ذلك يكون بمثابة خنق للحياة عينها . اي بمثابة جهل مدقع لانطولوجيتها . اذ لا بد للعقل من مواد اولية يزاولها كي يصل الى المقاييس العامة . هذه المواد تأتيه من الحواس .

لا شك ان الكاتب يُجيد في وصف القرية اللبنانية ، كما كانت ايام جدودنا ، بالشعر الزجلي الذي يعكس –بصدق اصدق– المحادثات البيتية ، والمعاشرات اليومية ، والمناغيات القريبة . وقد ابدع الشاعران اميل مبارك وميشال طراد ، في زجلهما ، الذي سيبقى سجلاً خالداً عن حياة القرية . حياة كان يحياها اجدادنا ملؤها العاطفة الطرية . وهل اجمل من ان نقرأ :

مشتاق ارجع للضيعا مشتاق كتير
اتعمشق لي بشي تيني وصيد عصافير !
عنت عا بالي الضيعا ويا ما مشتاق
عي السلي بيكوعي وحوّش جرجير !

أو أن نقرأ لميشال طراد .

ع طريق العين محلا التكتكي
والقمر ع كتف صنين متكي ،
بيكشح الغيمات تياخد هوا
وبيطل بيوجو ،وبيوجو حكي.

أن نعبر عن هذه المناغيات القروية ، بلغة فصيحة ، فإنه خيانة لعفوية الحياة العاطفية . لكن الحياة ذات عفويتين : عفوية القلب الذي يرضى بالعامية ، وعفوية العقل الذي لا يرضى بالعامية . هنا

(أي في المباحث العقلانية) نشعر تمام الشعور بأن اللغة العامية لا تقدر على تلبية الحاجة .

وقد شاء أحدهم أن يبحث ، فلسفياً ، في موضوع الجمال ، بلغة عامية ، فأخفقت محاولته كل الإخفاق . ولا بد لنا من أن نذكر ، على سبيل المثال ، نحواً من هذه المحاولة . قال يتحدث عن الجمال :

نشوه كل معرفة فيك بترافقو لزي . بس اللزي البترافق المعرفي البيعملها الجمال بتفرق عن غيرها بأنو فيها شيء من التخدير ، من الحلم ، من الهز ، كانو الكون الانت فيه مرجوحا .

ون تغمقنا أكتر منشوف روح الجمال حركي صوب التوحد ، أجزاء عمتنلم بكل ، طيشرا عمتصير نظام . وهالنظام متل كأنو بساطا مع أنو مركب من ألف تنويعا وتداخل . شعور غريب ، شعور بأنو التعقيد زاتو صار عميرحرح . الجمال بينعمل مش لشي إلا لحالو . لا بارغام ولا لغايي . تمام متل اللعب . البيلعب ما حدا جابروا ، ولنو عميضارب ع منفعا . وبيكد وهو ملتز . متل كأنو مأمور من قوى ناعمي غامضا خفيي من برات هالكون (١)

لقد أراد الكاتب أن يعالج مشكلة الجمال ، على الصعيد الفلسفي ، دون أن يتبنى اللغة التي تلائم هذا النوع من التفكير . نعني الفصحى . والمقصود بالفصحى ليست اللغة المعقّدة بل اللغة المقعّدة . تبنى العامية لفِكَر فصيحة ظناً منه أن العامية تضع الفِكَر الفصيحة في متناول الناس . لكن الفكرة الفصيحة تظل فصيحة وإن في لغة عامية . لذا بان الإنحراف وكان فشل محاولته صارخاً .

اللغة الفصحى هي الصادقة في هذا المجال . هي المعبرة وحدها عن عفوية العقل ، كما هو حال العامية في التعبير عن عفوية القلب . أجل! إن قصص حنكش الزحلاوية ، تفقد كل جمالها ، إذا قيلت بلغة فصحى . و « المنقذ من الضلال » يفقد أيضاً كل جماله إذا

---

١) راجع مقدمة ديوان «جلنار» لميشال طراد كتبها سعيد عقل .

قيل بلغة عامية . تصور القرآن ، والإنجيل ، مكتوبين باللغة العامية ... أو نهج البلاغة مكتوباً بالعامية ... أو فيلسوفاً يحاضر في وجود الله ، أو عدم وجوده ، باللغة العامية . أبمقدور العامية أن تعبر عن هـذه الناطحات العقلانية في الوجدان ؟ إن كل ما يتسم بطابع قدسي ، عقلاني ، مجرد ، يدعو إلى استعمال لغة خاصة . ألا يشعر القارىء أن عفاف العقل قد تدنس ، في مقدمة « جلنار » ، كما تتدنس القصيدة الزجلية (عَ طريق العين محلا التكتكي) لو صيغت بلغة فصحى؟ إن مجرد تبني العامية لمعالجة الفلسفيات لا يضع هذه الأخيرة في متناول العامة . العامة لن تفهم الأبعاد الفلسفية ، وإن بلغة عامية ، لأن الأفكار المعالجة بعيدة . من هنا عدم الإنسجام ، في مقدمة « جلنار » بين المبنى والمعنى . مبنى قريب لمعنى بعيد . يقول الجاحظ في البيان والتبيين ، ما يلي (١)

متى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام العرب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها . فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير (٢) وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً(٣) فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له . ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها .

لا بد لنا من أن نذكر ههنا أمير الزجل — في لبنان — رشيد

---

١) البيان والتبيين . الجزء الأول . ص ١٥٩ القاهرة ١٩٤٧ . المكتبة التجارية الكبرى .

٢) يعني انك تخرج من هذه الحكاية خائباً ، غير بالغ قصدك منها . واستخف بها السامعون لها .

٣) سرياً : فخماً شريفاً .

نخله الذي لم ينقطع يوماً عن الكتابة بالفصحى . وقد امتاز بها امتيازاً جعله في طليعة أربابها ، نظماً ونثراً ، كما امتاز بفن الزجل ، محلقاً في أجوائه العالية . خليق بنا أن نستفيد من خبراته لأنه زاول الفنين معاً . لقد شعر بما يقوم في الأذهان من أن الزجل بمثابة حرب على الفصحى . فاستغفر الله ، ألف مرة ، إذ لم يكن الزجل يوماً (لا في الأندلس أمس ، ولا في مصر ، ولبنان حاضراً) ليزج بنفسه هذه الزجة . وعندما سئل عن السبب الذي حداه على ترك الفصحى وأخذ العامية أداة تعبير قال :

ما اخترت العامية ، بدلا من الفصحى ، بل أراني أقبل على العامية ، حين أترك الفصحى ، وأقبل على الفصحى ، حين أترك العامية ، ميلا مع الخاطر العارض ، أو المناسبة الحاتمة (١)

يهمنا من هذين التصريحين الخطيرين ، الجاحظ ورشيد نخله ، اتفاقهما مع ما نجري عليه بصدد العامية والفصحى . إن الحياة ذاتها هي التي تحتمهما . والحياة ثنائية الإتجاه . هي كالأرض. فيها الواطي وفيها العالي . فيها المرتفع وفيها المنسطح . فيها القريب المشاع وفيها البعيد الفريد . فهل نعجب والحالة هذه أن يكون ثمة لغة فصحى ولغة عامية ؟ أن يتكلم سكير لغة فصحى ، أو أن تخاطب الخادمة سيدتها بلغة فصحى ، فهذا انحراف عن وضع الحياة الأساسي . عن الواقع . ذلك لأن مناخ السكير والخادمة لا يتطلب لغة منطقية تحليلية. لا يستلزم التجريد . النحو لا يلائم هذا الضرب من الحياة . وقد انتبه الجاحظ إلى تلك الثنائية . وعرف نخله أن الخاطر يميل يميناً ويساراً علواً ودنواً. فعلى اللغة أن تميل معه وفق المناسبة الحاتمة . شعر الإثنان أن اللفظة والخاطرة متلازمتان . إذ لا فاصل بين اللغة والفكر . ولا حائط بين

---

١) معنى رشيد نخلة، ص ٨٢، جمعه أمين نخلة . طبعة ١٩٤٥، بيروت .

المبنى والمعنى . خطأ العاميين أنهم لا يعترفون بأنطولوجية الكلمة . لا يرون لها شروشاً في أعمق أعماق لطيفتها التي تأخذ ألف لون . وألف ضلع . وألف بعد . إن قوام طبيعتنا الآدمية عينها تفرض هذه الثنائية . أكثر من ذلك . نقول بأن اللغة التي لا تشتمل على ثنائية فيها ليست بلغة إنسانية . نقول أيضاً نتيجة لهذا إن ثنائية العامية والفصحى ليست وقفاً على اللغة العربية فقط . كل لغة بشرية تحمل فيها ثنائية صريحة . في كل لغة لسان فصيح ولسان عامي . أجل ! إن هذه الثنائية على درجات ، إذ تختلف شدة ، من لغة إلى لغة . المهم أنها كائنة ، في كل لغة ، لا محالة .

لنعد قليلاً إلى الوراء . قلنا بأن كل كلمة تصبح فصحى إذا دخلت في وحدة إعرابية . في بناء نحوي . الكلمة ، في حد ذاتها ، ليست عامية ولا فصيحة . هي عامية إذا استعملها ترتيب خال من الإعراب . وهي فصحى ، إذا استعملت في ترتيب، ترتبط فيه سابقاتُه بلاحقاته . وقد أعطينا ، في حينه ، لفظة الصاج ، مثلاً على ذلك . قلنا هي عامية في « الصاجْ عالنارْ » . وهي فصحى في « الصاجُ على النارِ » . أما هي ذاتها ، في خاص مبناها ، فلا عامية ولا فصحى.

لنمعن الروية في هذه النظرية . يقيناً منا أنها تحل مشكلةً كبيرةً من المشاكل التي تواجهها اليوم لغتنا العربية . نعني بذلك مشكلةَ المصطلحات العلمية . نحن نعلم أن العربية تجابه أزمةً حادةً . لقد نهضت الشعوب العربية من كبوتها ، وعزمت على أن تسير في ركب الحضارة ، الحديثة ، مقتبسة ما يجب اقتباسه من شتى أنواع العلوم الإيجابيــة . من هنا تدفق المصطلحات الفنية مما جعل اللغة العربية في افتقار إلى ترجمتها . لكن فئة من المتزمتين تقف بالمرصاد فلا تريدنا مبدعين. علينا أن نتبع السلف . وهكذا تزهد هذه الفئة كل الزهد في اقتبال

الألفاظ الدخيلة التي تشوه حسب قولها عفاف اللغة الفصحى.

إن تزمت هذه الفئة عائد إلى خطأ منها في تحديد اللغة الفصحى . لقد حصرت الفصحى في اللفظة عينها ، وبذلك تكون قد صنمت الكلمات ، دون أي مبرر ، فأغلقت النوافذ على اللغة ، لتخنقها في عقر دارها . هذه الفئة ترفض أن تعتبر « رَاحَ » فعلاً محترماً فصيحاً بجانب « ذَهَبَ » الذي هو أيضاً محترم فصيح . إلى أي شيء تستند لترمي الحرم على الفعل الأول « رَاحَ » ؟ ما هو الفرمان السماوي ، الذي أعطي ذَهَبَ ، ولم يعط رَاحَ ؟ أتكون الحاء ، المسبوقة بالألف بعد الراء ، غير مرغوب فيها ؟ وما هو السحر العجيب ، الذي جعل من حروف الذال ، والهاء ، والباء – مجتمعة معاً – من عنديات اللغة الفصحى ؟

أيكون إجماع العلماء ؟ هذا لا يكفي . أيكون ورود « ذَهَبَ » في المعاجم ، وعدم ورود « رَاحَ » فيها ؟ هذا أيضاً لا يكفي . إذن لماذا يجوز لنا أن نقول « ذهب الولد » ؟ ولا يجوز أن نقول « راح الولد » ؟ لا جواب عن ذلك . أو الجواب هو التالي : هكذا قال العرب . أو هكذا قال الشاعر الجاهلي الفلاني . أو هكذا وردت عند الأقدمين . حصر اللغة الفصحى في اللفظة ، عينها ، يشل حركة الإقتباس. في حين أن كل لغة هي مفتقرة إلى أخذ بعض الكلمات عن غيرها . ولا عار عليها في ذلك . هي سنّة التبادل بين الكائنات الحية ، في الوجود ، واللغات التي لتلك الكائنات. إذ ما من لغة تستطيع وحدها أن تقوم بحاجة المدنية . والإقتباس لا يكون إلا اقتباس ألفاظ لا اقتباس جمل . فإذا أغلقنا الباب – من هذا السبيل – على اللغة العربية ، سددنا خطواتها نحو الإنقراض .

أما اللغات الأوروبية فقد وعت هذه الحقيقة . لذا لم تتنكب عن

أن تتقبل الدخيل الذي كان ينقصها . والدخيل صار أصيلاً ، مع الزمن ، وتمّ الزواج إلى الأبد . لقد أخذ الإفرنج ، عن العربية ، والفارسية ، كلمات عديدة . أمثال : الانبيق (Alambic) والكحول (Alcool) والسكر (Sucre) والرصيف (Récif) والياسمين (Yasmine) والزرنيخ(Arsenic) والجبر (Algèbre) والشراب (Sirop) والزرافة (Giraffe) والقرن (Corn) . إلى ما هنالك من كلمات علمية وغير علمية كثيرة . وقد صارت هذه المفردات ، مع الزمن ، من صلب اللغات الأوروبية ، دون أن يفسد قوام فصاحتها إطلاقاً . الفرنسية فرنست ، والألمانية ألمنت ، والإنجليزية انجلت ، والطليانية طلينت . فلا بأس من أن تعرب العربية إذا لم تجد معادلات في خزائنها . وإذا قيل بأن حروف العلة في الأبجدية العربية أقل مما هي في الأبجدية اللاتينية (تبريراً لاستعمال الحرف اللاتيني) نقول ليس ما يحول دون تدارك هذا النقص ، فنشكل الحروف ، أو نحرفن الحركات ، كأن نكتب الفتح ألفاً ، والكسر ياءً ، والضم واواً . إن أحرف العلة موجودة عندنا في الحركات فلا مانع من أن نحرفن هذه الحركات .

إن الذين ينادون بالعامية ، يستندون غالباً إلى فقر اللغة الفصحى ، لاستيعاب الألفاظ المستحدثة في العلم . الكلمات العامية لا تتقيد بأوزان . وقد نشأ فروع من العلم ، لم يكن لها أثرها عندنا ، بعد انقطاع عهد العلم في ديارنا . ثم احتككنا بالغرب ، واطلعنا على أحدث اكتشافاته العلمية ، واضطررنا إلى إدخالها في حياتنا الإجتماعية ، ومدارسنا ، فكانت مشكلة المصطلحات . هذه المشكلة تعود ، بالأساس ، إلى أمرين : أولاً عدم وجود ألفاظ في لساننا لتلك المصطلحات ، ثانياً اصطدامنا بالمترمّتين الذين لا يريدون زحزحة شيء من اللغة

الفصحى . لأنهم يعتبرون الفصحى في ألفاظها لا في روابطها . هنـــا حصلت المشكلة .

لقد اصطدم الغرب مثلنا بالمشكلة عينها يوم كان الشرق معلمه . هذا الإصطدام لم يكوّن له عقدة عويصة . السبب في ذلك أن الغربي لا يتزمت . لا يعتبر الفصحى في الألفاظ بل في الجمل. لذا أباح بناء الألفاظ على مُثُل جديدة دون أن يوجب الإقتباس بكلام قداماه . فعندما وجد نفسه أمام صناعة الجبر ، الذي هو علم عربي ،لم يتنكب عن فرنستها ، وألمنتها ، وأنجلتها ، وطلينتها ، على اعتبار أنهـــا من صناعة الشرق . وقد تركزت هذه اللفظة ، الدخيلة على الغربيين ، أنذاك ، حتى أصبحت من أهل البيت . وهكذا لم تقف اللغة — بمعنى اللفظة — سداً منيعاً في سبيل تقدمهم الفكري . فما الذي يمنع اللغة العربية من أن تقتاس بالطريقة ذاتها ؟ ما الذي يمنعها من أن تحصر الفصحى في الروابط لتفتح باب التجدد على مصراعيه ؟ لا بأس من أن نتبـــع الغرب في اقتبـــال المفردات العلمية التي لا تكوّن خطراً على اللغة العربية الفصحى القائمة أصلاً على الروابط الإعرابية . متى أقمنا الفصحى على الجملة ، لا على اللفظة ، سهل علينا التعبير عن المعاني ، لاتساع العربية في إيجاد الأوضاع ، التي تؤدي جميع المعاني الممكنة . إن استعمال العلوم ، وتدريسها ، لا يقوم فقط على المصطلحات الفنية . هناك المادة الفكرية ، في العلوم ، التي لا يجوز — بحال من الأحوال — أن نعبر عنها بغير العربية ، لأنها مادة إنسانية بحت . أنضحي بالمادة الفكرية ، في سبيل بضع مئات من المصطلحات نستطيع دائماً أن نعربها ، إذا لم نتمكن من ترجمتها ؟ ليس ضرورياً أن نترجم كل المصطلحات العلمية ، إلى اللسان العربي ، لكي تصلح لغتنا . مثل هذا العمل لا يمكن أن يحصل في لغة من لغات البشر. مهما

تكن اللغة زاخرة زاهية فهي بحاجة دائماً إلى أن تكتب بحرفها القومي ألفاظاً أعجمية . وهو من حسنات وضع الحياة الأساسي ، لأنـــه يشعر كل مواطن بعدم الإستغناء عن سواه ، فيقوى فيه الوعي الإنساني ، بالإضافة إلى وعيه القومي .

إذن اللغة ليست حروفاً فقط . ولا ألفاظاً . إنها وحدة لا تتجزأ . هي أبنية كاملة . لذا كانت مقوماتها ، أو معطياتها الأصلية الجوهرية ، شيئاً يتجاوز الألفاظ المفردة ، كألفاظ مفردة ، نستعملها اليـــوم لنهملها غداً . وما لنا ، في سبيل ذلك ، إلا أن نفتح قاموساً مـــن قواميس العربية (أو من اية لغة أخرى) لنرى كم هناك من الأسماء ، والأفعال ، التي هجرت ، أو استكرهت ، فأهملت . ألا تشتمل لغتنا ، كما تشتمل كل لغة بشرية ، على ألفاظ غريبة ... منها ما هو فارسي او رومي او هندي ... استعيرت ، فاستعملت الى حين ، ثم أهملت في أقبية النسيان ؟ أليس هذا دليلاً على أن قوام اللغة لا يكون في الألفاظ المفردة بل في أبنيتها الإعرابية النحوية ؟ الألفاظ المفردة تتغير ، فتزول ، ولكن اللغة لا تزول . الفصحى ليست في هذا الإسم أو ذاك أو ذلك . الفصحى هي في الجملة رمة .

لا شك في أن تعمد العويص ، من النحو ، شيء غير مستحب . يعيق سير اللغة إلى الأمام لأنه غلو في الزينة والترف . هنا يصح التيسير بل يجب . ولا نعتقد أن أحداً ، مارس بعض الشيء فن التعليم ، يجرؤ على نكران ضرورة هذا التيسير . لكن يجب ألا نبالغ في المناداة به كي لا نحوّل القضية إلى مأساة أو فاجعة . التيسير واقع بطبيعة الحال ، أردنا ذلك أو لم نرد ، لأن اللغة كائن غير جامد ، لا يسعها إلا أن تتطور ، وتساير النشوء والإرتقاء . بقاء اللغة في معزل عن كـــل تأثير خارجي أمر مثالي لا وجود له في عالم الواقع . ونحن نخـــدع

أنفسنا حقاً إذا اعتقدنا أن اللغة تستطيع التوقف ... أن العربية في حالة جمود .

غير أن التيسير شيء والتغيير شيء آخر . تيسير الفصحى قضية تربوية ، والإستعاضة عنها بالعامية قضية فلسفية . الأمر الأول لا يعني الأمر الثاني . التيسير يتناول فروع اللغة ، التغيير يتناول أصول اللغة ، التي هي أصول الفكر البشري ذاته . طلب التيسير شيء لازم. وهو حاصل بطريقة عفوية . لكن هذا لا يبرر مناصرة العامية على الفصحى . مثل تلك المناصرة لا يعد تيسيراً ، في نظرنا ، بل تخريباً لمعطيات الوجدان البديهية . الخلط بين التيسير والتغيير (نعني بين قضية تربوية وقضية فلسفية) هو الذي جعل بعض أهل القلم يبتعدون عن جادة الحق . لو تحقق زعمهم لعادت العامية ذاتها إلى الثنائية فانقسمت إلى عامية فصحى وعامية غير فصحى. اذن وقف على اللغة أن تعكس الحياة (بل هي الحياة) والحياة ثنائية الإتجاه .

جميل أن نطالب بتيسير الفصحى وفق مستلزمات عصرنا العشريني. لغتنا الفصحى اليوم يجب أن تختلف عن لغة الزمخشري . لا نعتقد أن أحداً منا يجرؤ على التمسك بالزمخشرية . لكن التطور ذو حد لا يمكن تجاوزه وإلا بطل أن يكون تطويراً . هذا التطور يجب أن يحصل من لغة فصحى معقدة (أي لغة تعكس مجتمعاً ماضياً) إلى لغة ميسرة (أي لغة تعكس مجتمعاً حاضراً) . هذا ما ينبغي أن يحصل . وهو حاصل بطبيعة الحال . أما القول بالتطوير من الفصحى إلى العامية ، على اعتبار أن لغة الحياة هي العامية ، فهو جهل لمعنى الحياة، وتقويض لواقع الفكر الإنساني في عموده الفقري . إن التيسير ، الذي يفرض وجوده ، يجب أن يحصل من داخل الفصحى ، ليبقى في فلكها الخاص.

أجل ! إن عصرنا حافل بالعلوم والفنون والصناعات . عصر لا

تنفك فيه ملكات الإبداع ، وقوى الإختراع ، تقوم على أشياء كثيرة المنافع ، في سيرة المرء العقلية ، والعملية ، والإجتماعية ، إلى ما هنالك من ضروب السِيَر العسكرية ، والصحية ، والمالية ،والزراعية. حيال هذا السيل الجارف من الإبتكارات ، لا تزال العربية — رغم بذل المجهود في تنميتها ، واستفراغ الطاقة في تعليتها — فاترة غير قادرة على السير في طريق الحضارة البشرية الحديثة . لذا كانت بحاجة إلى عناية ورعاية وتوجيه وتوحيد .

هذا لا يعني أن العربية قد أفلست ، بالتمام لكي ننادي بالعامية عوضاً عن الفصحى . اللغة العربية ما زالت في ريعان شبابها . وهي قادرة أن تجاري أوسع اللغات ، شرط أن نريد نحن تلك المجاراة الواسعة ، لأن اللغة مرآة تعكس أحوال الأمة، ورسم يصور مجتمعه، وأخلاقه ، ونزعاته . هي أصدق السجلات لزخم الأمة . فإذا كان ثمة من هرم ، وتقصير في اللغة ، فذلك وارد من قبل الأمة عينها ، التي تتخلف هي ذاتها في ركب المدنية « إذ اللغة بأهلها — كما يقول اليازجي — تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم » .

قلنا ، في ما سبق ، بأن المصطلحات يضعها من يزاول معانيها . فهوأحق من غيره لوضعها في أحضان الوجود . والمصطلحات هي في بدء من الأفعال التي تعبر عنها . متى وجد الإنسان ُ الفاعلُ الشيء وجد طبعاً اسم هذا الشيء . الفعل والقول يتواجبان . معناه أن أزمة المصطلحات ، في اللغة العربية ، لا تحلها المجامع وحدها . ولعل الفرق الكبير بين مجامعنا اللغوية (في الشرق) ومجامعهم اللغوية (في الغرب) يقوم على أن مجامعنا استنتاجية . وعلى أن مجامعهم استقرائية . مجامعنا تفرض على الناس ما تصطلح هي على وضعه ، ومجامعهم تثبت في المعاجم ، ما يدور أولاً على ألسنة الناس فيقره

الإستعمال . عملنا هابط من سماء الواهمة وعملهم صاعد من أعماق الحياة . والفرق عظيم بين أن نفرض على الناس محنطات وأن يمدنا المجتمع بألفاظ معيوشة كتب لها البقاء .

موقف مجامعنا من اللغة موقف من يعتبر اللفظة واسطة لا غاية . موقف مجامعهم من اللغة موقف من يعتبر اللفظة غاية لا واسطة . إن الذي يعتبر اللغة واسطة ، لا يتنكب عن أن يتواطأ على وضع المصطلح ، الذي يروقه . أما الذي يعتبر اللغة غاية لا واسطة فإنه يتسلمها وُقفاً عليه من صميم الحياة . هي بنت العمل الصافي. بنت العفوية الطاهرة . بنت السليقة الوجودية . المصطلح لا يفبرك بصورة اعتباطية . من هنا أخطاء مجامعنا اللغوية . فإذا كنا نريد أن نقذف باللغة العربية إلى ميادين التقدم ، لتتمكن من أن تجاري سواها في ركب المدنية ، يجب علينا أولاً أن نبشر (على أوسع نطاق ممكن) بضرورة الترجمة التي تضع بين أيدي الناس ألفاظاً ، تتفاعل فيما بينها على محك الذوق السليم الجماعي ، فإما أن تقبل وإما أن تنبذ . ومن ثم يأتي عمل المجامع اللغوية . ثانياً أن نبشر (على أوسع نطاق ممكن) بضرورة إعطاء العلوم ، والفنون ، والصنائع — باللغة العربية — في المدارس ، والمعاهد ، والجامعات . إن استعمال اللغة العربية ، في التعليم ، ينزلها إلى مستوى الحاجة والضرورة ، فنعمل إذ ذاك حياتياً على إيجاد المصطلحات ، وعلى وضعها بين أيدي الناس ، ليتداولوها ويقولوا كلمة الفصل فيها . ثالثاً نبشر (على أوسع نطاق ممكن) بضرورة الرجوع إلى صاحب العمل المختص ، لنأخذ عنه المصطلحات العائدة إلى هذا العمل ذاته . مَن أحق مِن الفلكي في وضع مصطلحات لعلمه ؟ ومن التاجر في وضع مصطلحات لمهنته ؟ ومن الطبيب في وضع مصطلحات لعلمه ؟ إن الذي لا يعيش العمل لا يكون قادراً

على وضع مصطلحاته المختصة به .

هذه القواعد تستند إلى المبدأ الفلسفي ، الذي دافعنا عنه ، والقائل بأن اللغة غاية لا واسطة . فهي تحترم ناموس الحياة الذي هو فرْض على الإنسان فوْقف على كل فرد . أزمة العربية ناتجة عن وضع سياسي لا عن وضع لغوي في صميمها . لقد قلنا ، ونعيد الكرة ، بأن لا زعامة في عالم اللغات ، ولا عبودية أيضاً . فلماذا يريدون أن لا يكون في العربية قابلية استيعاب الحضارة ؟ ألِعَجز في قوامها ؟ هذا ما لا نؤمن به . إن كل لغة من لغات البشر تستطيع وفق عبقريتها الخاصة أن تعبر عن كل ما يختلج به العقل الإنساني . لا نرى داعياً لعجز أصيل دائم ، في العربية ، شرط أن نريد نحن رفع خاتم الحرم عنها.

يبقى لمعضلة العامية والفصحى وجه سياسي ، لا بد من التطرق إليه ، بروح علمية خالصة . إن الذين يبشرون بالعامية يهدفون ، من قريب او بعيد ، الى وضع البلاد العربية في مناخ سياسي متفسخ . العامية اللبنانية تختلف عن العامية المصرية ، والعامية المصرية تختلف عن العامية العراقية ، والعامية العراقية تختلف عن العامية السورية . كل عـامية تختلف كل الإختلاف عن عاميات البلاد العربية . بـذلك تتقطع الوشائج اللغوية ، فيما بين الأقطار ، فتتقطع تدريجياً باقي الوشائج الإجتماعية . بهذه القطيعة اللغوية ، يصير لكل بلد عربي لغة خاصة به ، إذ يصبح لكل بلد عربي عامية تختلف عن عامية سواه من البلاد العربية . إلى ماذا تؤول الحالة في الشرق العربي لو أخذت العاميات مركز اللغة الفصحى ؟ الشامي يقول : ْشلُونَك ْ.واللبناني : كيفْ حَالَكْ . والمصري : أزَّيك ْ. والمراكشي : لا بَاسْ عليكْ . فتأمل ؟

لو اتبع كل جيل اصطلاحات لغاته العامية ، وضرب صفحاً عن

اللغة الفصحى ، لأمست اللغة لدينا الآن لغة أعجمية نكاد لا نفهمها ، وتعذر على السوري فهم لغة المغربي ، وعلى المغربي فهم لغة المصري ، وعلى المصري فهم لغة العراقي ، كما حصل للغة العربية مع سائر اللغات التي خرجت عنها . وآخر هذه اللغات هي اللغة المالطية . وهكذا حصل للغتين اليونانية ، واللاتينية ، قديماً مع اللغات ، التي تفرعت عنهما في ذلك العهد ، وقد نشأت عامية في بادىء الأمر . يقول طه حسين ، بهذا الصدد ، ما يلي :

أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية إلى شيء خطير ما أرى أنهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير . وهو أن العالم العربي الآن وكثيراً من أهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى ، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره المتباعدة . فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية ، فيمعن كل قطر في لهجته ، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتبادر . ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين ، واللبنانيين ، والعراقيين . ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق ، إلى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية إلى لهجاتهم ، كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين ، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خير أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة ، هي اللغة الفصحى ، يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق ، أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تأتلف منها ، وأن يترجم بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الأوروبيين عن بعض . أما أنا فأؤثر وحدة اللغة وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون بها . وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون (١)

نعتقد أنه لا خوف على اللغة الفصحى من الذين يريدون القضاء عليها . لو عقل هؤلاء لعلموا أن محاربتهم لها هي محاربة لناموس طبيعي صرف هو ضدهم في تلك القضية لأن الثنائية تعتري كل لغة

---

١) العدد الأول من مجلة «الحصاد» ، كانون الأول ١٩٥٥ ، ص ٢٦ .

في العالم . هي إحدى المعطيات البديهية في حياة الشعوب . ولا تعد أمة من الأمم في مستوى راق ، من الحضارة ، إلا إذا نهضت بلغة القول والكتابة ، معاً ، إلى درجة عالية من الرقي . أي إلى درجة الفصحى . كلما تحضر الإنسان احتاج إلى نمط خاص من التعبير يختلف عن النمط الذي يستعمله في وجوده اليومي. عملُ هذا الناموس، لم تنج منه لغة من لغات البشر ، أدناها وأسماها . ولن يزال يفعل فعله ذلك فيها ، إلى ما شاء الله ، وهو جار في الألفاظ والجمل، عن غير قصد من الناطقين . وتلك عفوية الحياة . وتلك حتميتها .

لنفرض أن العامية انتصرت ، آخر الأمر ، فهل تحل المشكلة ؟ ألا يتنازع لبنان ، مثلاً ، عدة عاميات ؟ بأية واحدة منها نكتب ؟ لا بد لعامية من أن تطغي على أخواتها فتصبح بدورها لغة موحدة ، أي لغة فصحى ، إذ التوحيد ضروري في اللغة ، كي تصبح ذات قواعد واحدة ، وشواذات واحدة . إن مشيئة الطبيعة هي التي تريد ذلك .

نحن نعلم أن اللغة هي مظهر من مظاهر الحياة الإجتماعية . والحياة الإجتماعية ، في الشرق العربي ، ترينا أن بلاد هذه الرقعة الجغرافية تسير نحو تضامن واضح . تتطور نحو التشابك في المصالح ، يوماً بعد يوم ، مما يفرض نمطاً واحداً من التفاهم . وقد وعت أوربا ، اليوم هذه الحقيقة . وعت أن انسجام اللغة يسير جنباً إلى جنب مع الانسجامات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية. وهي ،أي أوربا ،تحاول ما في استطاعتها أن تدرك الإنسجام الإقتصادي ، والسياسي ، والإجتماعي. انسجام اللغة، إذن، شرط من شروط هذه الانسجامات، التي تتغنى بها، وترغب فيها . لا نعني هنا بانسجام اللغة القضاء على اللغات القومية . وإنما إيجاد لغة فصحى ، بالإضافة إلى اللغات الأم ، تكون سبيل تفاهم بين الشعوب الأوربية المختلفة . وقد تنبه إلى ذلك

احد أساطين الفكر الفرنسي سنة ١٩٤٦ .

قال جوليان باندا (Julien Benda) ما يلي :

إذا كنا نريد أن نزود الغرب وحدة روحية ، علينا أن نجند الحملات في سبيل إنشاء لغة غربية ، أعني لغة تضاف إلى لغات مختلف القوميات الغربية ، بدون أن تحدث التخريب في هذه اللغات . يكون مثلها مثل الفرنسية التي أضيفت إلى البيكاردية ، والبروفنسالية . . . ومثل الانكليزية التي أضيفت إلى الغالية ، والايكوسية . هذه اللغة يتلقنها الأولاد جنباً إلى جنب مع لغة بلادهم . مثلهم مثل أولاد عائلات مثقفات كثيرة في الغرب ، يتعلمون الافرنسية – لمدة طويلة – بالإضافة إلى لغتهم القومية (١) .

لقد رأى ، جوليان باندا ، أن أوربا تسير نحو الفدرالية الإقتصادية والإجتماعية ، والسياسية . ورأى أن هذا السير نحو الفدرالية سيجر معه أوربا نحو فدرالية لغوية ، تتبلور في لسان واحد ، بالإضافة إلى اللغات القومية . قال يجب أن ننشيء لغة غربية . تلك مشيئة الطبيعة . فلماذا لا نرى – في لغتنا الفصحى – مشيئة من مشيئات هذه الطبيعة؟ لماذا لا نعتبر الفصحى ، عندنا ، نعمة نتمتع بها في الشرق العربي ، وقد حرمها الغرب ؟ حرم نعمة ، منحتنا إياها الطبيعة ، ونحن عنها غافلون . لقد وفرت الطبيعة ، علينا ، حل معضلة لغة توحد، بين جميع البلاد العربية .

في الختام نقول : نحن لا ننادي بالعامية في سبيل القضـــاء على الفصحى . ولا بالفصحى بغية القضاء على العامية . نقول لا غنى للإنسان عن العامية والفصحى . هما ، في نظرنا ، من صلب الحياة . الذين يتحيزون لهذه ، أو تلك ، يجهلون وضع لطيفتنا البشرية ، التي

---

١) راجع مقاله في كتاب L'Esprit Européen ، ص ٢٧، سنة ١٩٤٦ ، Rencontres Internationales de Genève

تفرضهما هي ذاتها . التحيز هو الذي خلق المعضلة . أما نحن فإننا نعترف بحتميتهما . بحتمية الحس والعقل . من السخف ، إذن ، أن نعتبر العامية انحطاطاً لسانياً للغة الفصحى ، أي أن نعتبرها رديئة، فاسدة ، تتميز بالركاكة ، والرطانة ، والعجمية . ومن السخف، أيضاً ، أن نعتبرها أفضل من الفصحى بدليل كونها سابقةً ، في الزمن ، للغة الفصحى . إن الأسبقية في الزمن لا تعني أسبقية في القيمة. وإلا لظل الطفل أفضل من الراشد . ولبقي عصر الحجر أفضل من عصرنا العشريني . ولانتفى مبدأ التطور الخلاق .

نحن نقول بأن العامية فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي والتركيبي . لها مفرداتها ، واقتباساتها ، وقياساتها . لها أدبها أيضاً . ونقول في الوقت ذاته بأن الفصحى فصيلة لسانية قائمة بذاتها. هي لنوع خاص من حياة الوجدان. لها نظامها الصوتي والتركيبي . لها مفرداتها ، واقتباساتها ، وقياساتها . لها أدبها أيضاً . من الخطأ جداً أن نرجع أحداها إلى الثانية . همـا فصيلتان من لغة واحدة . مثلهما مثل ثنائية الحس والعقل من الإنسان الواحد . هذه الثنائية تخلق نوعاً من التوازن في اللطيفة . هكذا العامية والفصحى .

ونحن نقول ، ثالثاً ، بضرورة تطوير العربية الفصحى ، لكي تنسجم مع روح العصر . نقبل بالمصطلحات الفنية الجديدة التي يفرضها تطور الحياة ذاته . نقبل ، بكل طيبة خاطر ، كلمة «تلفون». حضارة القرن العشرين هي التي أرادتها . نقبلها على أنها دخيلة ، في البدء ، لتصبح أصيلةً فصيحةً مع الزمن . لا شيء ، في العالم ، يستطيع أن يرفض كلمة من الكلمات ، متى شاعت ، وعمت على ألسنة الناس . إن المجامع اللغوية كلها ، ووزارات المعارف،

والحكومات ، عاجزة عن أن تفرض مصطلحاً واحداً على الشعب ، إذا كان هذا المصطلح لا يحمل – أولاً – في أعطافه ، وتضاعيفه ، جواز مرور من الشعب ذاته . اللغة ليست لطبقة دون طبقة . هي ليست لزمن دون زمن . هي ليست للماضي دون الحاضر . ولا للأرستقراطيين دون غيرهم . ليست لغة البلاط ، فقط ، أو لغة الأدباء والشعراء ، أو لغة القصور والأبراج العاجية . اللغة لكامل الشعب . وما يقوله الشعب هو الأصلح لأنه المؤتمن على صوابية الحياة. ولا نقصد بالشعب طبقة العمال ، فقط ، أو الفقراء ، أو رجالات الشارع . نقصد به ما شاع على ألسنة المجموع الأكبر . الشيوع هو الذي يبرهن على أن المصطلح النفسي يحمل فيه قابلية البقاء أكثر من غيره .

لا خوف على اللغة الفصحى من العامية ، ولا خوف على اللغة العامية من الفصحى . إن الأزمة الصاخبة ، التي تمر بها العربية هي ضرورية ، في نظرنا الآن ، لتدفع بالفصحى من فلك الجمود إلى فلك الحركة ، دون ان يبطل كونها فصحى . يقيننا أنها لن تهبط إلى العامية . وأن العامية لن ترتفع إلى الفصحى . لكل منهما دائرته . هذا هو منطق الحياةالذي يعلو ولا يعلاه .

نصل الآن إلى بيت القصيد . ما هو موقفنا ، في هذه الرقعة الجغرافية ، من لغتنا القومية . نعني من اللغة العربية ؟ لا شك أن اللغة القومية يجب أن تأتي ، نظراً وعملاً ، في المقام الأول. نقول نظراً ، لأنه لا يكفي أن يجيد الإنسان لغته القومية إجادةً قاموسيةً ، بل ينبغي له أن ينظر إليها نظرةَ إجلال . اللغة القومية جزء لا يتجزأ من كيان الشعب . هي شرش نابض في حياة الأمة

الواعية . بدونها لا يرتقي الإنسان فكراً . ولا يسهم الشعب في بناء الحضارات الخلاقة . لهذا يجب عليه أن يجمع بين وجوب مزاولتها ، قاموسياً ، ووجوب النظر إليها باحترام . يجب أن تصبح من لحمه ودمه . أن تصبح من جملة معطياته البديهية التي يقوم عليها شعوره القومي . تلك المعطيات لا تستبدل . لا يستخف بها . وإلا يكون الإنسان قد نحر ذاته بذات يده . فانعدم .

لا تفعل اللغة فعلها الأنطولوجي ما لم تنهض كباقي مظاهر الحياة الإجتماعية في الأمة . أن يزدهر الشعب في السياسة ، والإقتصاد ، والزراعة ، والعلوم ولا تزدهر لغته الأم فهذا لا يعني ازدهاراً صحيحاً . الحضارة الحقة هي ، في نهاية الأمر ، حضارة الفكر. ولا حافظ للفكر غير اللسان . وإلا كانت الحضارة من جهة المادة ،فقط ، أي فوّاشةً بائدةً . الشعب الواعي قوميته لا يرضى لغير لسانه مركزاً أولاً في نهضته . هذا اللسان يجب أن يتحد اتحاداً عينياً بقلب الشعب. أن يُحترم ، ويُقدّس ، ويُعبد ، حتى يتغلغل في كامل جسم الأمة ، هابطاً وصاعداً . حتى يصبح عقيدةً وإيماناً . وهكذا يتسنى للغة الأم أن تنمو نمواً أنطولوجياً لا نمواً قاموسياً فقط .

هذه النظرة الإيمانية في اللغة العربية لم تكن لنا . وقد ظل موقفنا منها سلبياً لا سيما من جهة النظر . قد نكتبها جيداً. لكننا لا نؤمن بفوقيتها . بأسبقيتها . بأنطولوجيتها . لم تدخل ، إيمانياً ، في صلب كياننا القومي . مثلنا في ذلك مثل برغسون ، الذي أحسن الكتابة ، وهو مسيء إلى اللغة . لقد كنا أميل إلى التسليم بإمكان فصل الجوهر عن الوجود . الإنسانية عن القومية . وبالتالي الفكر عن اللغة . الحقيقة أن الذين دافعوا عن اللغة ، وهاجموها ، لم يدركوا موضع الصواب من القضية . فكانوا كلهم أعداء لها .

وضع القرن التاسع عشر ، اللغة العربية ، أمام سيل جارف من المصطلحات العلمية ، بسبب الإحتكاك الحضاري ، الذي قام بين الشرق والغرب . تلك المصطلحات العلمية لم يكن لها ما يعادلها في اللغة العربية . فكان لا بد من اتخاذ موقف واضح إزاءها ، نظراً للتفاوت الأدائي ، الذي حدث بين اللغة العربية واللغات الأجنبية . وقد اتخذت فئة أولى موقفاً سلبياً ، محافظاً ، من هذه المشكلة اللغوية . لم ترد أن تستعير من ألسنة الغرب . ولا أن تكون مبدعة . فظلت تابعة للسلف تماماً . تشوه لغة الأقدمين الكلاسية التي يجب أن تبقى على أسلوبها وقوامها .

وهكذا لم ترد إدخال دم غريب على دمها . لم ترد فتح شبابيكها على وديان غير وديانها . وسماوات غير سماواتها . وأنوار غير أنوارها . وتعتقد هذه الفئة أنها تحسن إلى اللغة العربية . الحق أنها تطعنها في الصميم . تبترها عن الإنسان لتصنمها في الخارج . مثلها مثل الصينيين ، الذين يسارعون إلى صندقة قدم المولود ، فور ولادته ، في قالب من حديد . النتيجة ؟ إيقاف نمو القدم عن الإزدهار والتمدد في مجاله الطبيعي . فتخور القوى . وينعدم الإنطلاق الصاعد .

تلك الفئة متزمتة . خطأها أنها تفصل اللغة عن اللطيفة البشرية . وبذلك تجمدها . هي تجهل أن اللغات ليست شيئاً ساكناً . بل تتصارع فيما بينها ، عند التماس ، وتتنازع من أجل البقاء . السبب ؟ هي كائنات حية . مثلها مثل الشعوب التي تتحاك . لا تظل مكتوفة اليدين ، يوم تتجابه ، لكنها تدخل في عراك شديد . الغالبة تبقى . والمغلوبة تطرد . هذا العراك هو الذي يحافظ عليها . ينيخها لامتحان قاس . إذا كانت قوية ، بالأساس ، زادت قوة . وإلا انسحبت من

الميدان لتترك غيرها يزداد قوة . وغني عن البيان هنا أن الغالبة لا تخرج أبداً سليمة من الصراع . إنها تتأثر بالمغلوبة ، فتأخذ من مفرداتها ، وتتبنى الكثير من مظاهرها الطيبة . بهذا الأخذ ، والتبني ، سلامة اللغة . بقاؤها . غناها . خلودها . علينا إذن أن ننزل اللغات إلى ساحة العراك . من كان قابلاً للحياة انتصر وتجدد كيانه . ومن كان غير قابل للحياة مات واندثر .

سؤال . في أية حقبة من الزمن كانت اللغة العربية عارية من كل دخيل ؟ أكثر من ذلك . في أية حقبة من الزمن كانت مطلق لغة بشرية عارية من كل دخيل ؟ الجواب عن هذا السؤال جد عسير . الحياة أدرك مما نظن. وهي ذاتها تفرض عكس العفاف الذي نتصوره. عفاف اللغة ، في نظر الحياة ، ليس بالمحافظة على مفرداتها. على تجميد ألفاظها. فمن جهة المفردات ، اللغة هي دائماً عرضة للتغيير والتبديل ، وفقاً لسنة النشوء والإرتقاء. وهذا يعود إلى أن الشعب ، الذي يتكلمها ، هو في احتكاك دائم مع الغير . ولما كانت اللغة هي الإنسان المتطور عينه . فإنها هي أيضاً تقبل ناموس التغيير والتبديل . لذا لا يمكن لقدرة فردية ، أو غير فردية ، أن توقف تطور اللغة .

المعجمات لا تحفظها . دائرات المعارف لا تصونها . تحديد ألفاظها لا يقيها خطر التغيير . هي أقوى من كل تلك السدود ، التي تحطمها وتتفلت منها ، لتسير في طريق النمو الصاعد . والعرب لم يكونوا أعداء للتجدد ، والخلق ، والتوسع ، في عصر من عصور نهضتهم . أما في اللغة فقد أباحوا كل الإشتقاقات الناجحة . وتصرفوا برحابة صدر . والإشتقاق ، أصلاً ، لم يوضع إلا ليسهل على القوم إدراك المعاني الغريبة ، واستيعاب المصطلحات الأجنبية . وبذلك يطلون على آفاق جديدة ، وأنماط وجدانية ، لم يكن لهم بها علم من قبل .

اللغة العربية طيعة كسواها . لينة راقية . فقد سايرت الشعوب ، التي تكلمتها ، في جميع مراحل تاريخها . وافقت وانسجمت . تكيفت وفق البيئة . واتخذت خصائص كل موجة من موجات تاريخها . من اجل هذا كانت تكثر مفرداتها . وتغزر اساليبها البلاغية . انتقلت من خشونة الجاهلية ، الى حضارة الاسلام ، ثم اندفعت من فلك بني امية الضيق ، الى فلك بني العباس الواسع. تهذبت طرقها . ورقت حواشيها . وملكت مرونة اقوى في الدلالة .

اذا رجعنا الى ماضيات عصورها رأينا ان النحاة واللغويين لم يوصدوا الابواب في وجه من اراد اثراء اللغة . لقد استعاروا الكثير من الالفاظ الاعجمية للتعبير عما لا تستطيع لغتهم تأديته يومذاك . ولا عجب في ذلك . فالصراع واقع دائماً ، لا محالة ، بين الدخيل والاصيل . وكم من مرة تغلب الدخيل بسبب رشاقته ولينه ووزنه . اجل ! ليس ضرورياً ان يفوز الاصيل دائماً . لا فرق عند الحياة بين الدخيل من المفردات والاصيل . فقد يسايرها الدخيل اكثر فينتصر . تتوافر فيه الشروط اكثر فيفوز . من هنا ان خفة بعض الاعجميات ومادتها الطرية ، ومحاكاتها للوزن العربي ، تعطي للدخيل جواز مرور فيدخل قاهراً . هذه الصفاة تكسب الاعجميات مناعةً وجمالاً يوجبان لها حق الصدارة . لذا يرحب الضاديون بها اوسع ترحيب . تلك الاعجميات تلبس قميصاً عربيةً فلا يعود ممكناً للناطقين بالضاد ان يتوهموا انها اعجمية . كانت دخيلةً . وبسبب لطافة لفظها ، ورهافة احرفها ، غدت اصيلةً . لذا الشعب يحتفظ بها . ويدخرها لجميع رغباته . اكثر من ذلك . اصبح القضاء عليها من رابع المستحيلات ، لان خلفها قوة الاستعمال ، ومسايرتها لمميزات اللغة العربية .

ما لنا الا ان نفتح كتب القدماء ، من معاجم عربية وغير معاجم ، لنقع على الكثير من الدخيل ، الذي اشتهر وعرف . وعلى الكثير من الاصيل الذي غدا نسياً منسياً . الاولى وافقت ذوق الحياة ، فانتصرت ، واصبحت من داخل البيت . الثانية انحرفت عن رغبة الحياة ، فغلب على امرها ، واصبحت من خارج البيت . من منا يتوهم ابداً ان المفردات التالية هي اعجمية ؟ الفرند. السيف. الفرزدق. البرواز . الفيل . البلطة . البندق . الكزبرة . التلميذ . الفردوس . السوسن . الصندوق . الاستاذ . الالماس . البخشيش . البرنيطة . الشرطة . الاسطوانة . الهندباء . السراي . الطاولة . البوسطة . القناة . الترعة . الخنزير . الدفتر . الساذج . الشوربة . الكشتبان . الكرّوسه . الشمعدان ؟ وغيرها ايضاً وايضاً .

اجل ! من منا يتوهم ابداً ان هذه المفردات هي اعجمية ؟ الواقع انها اعجمية . وقد صارت من اهل البيت . والواقع ان عربويات كثيرة ، مقابل هذه الاعجميات ، صارت خارج البيت . وهكذا نرى كيف ان العرب جمعوا بين غرضهم من المحافظة على اللغة واقتباس اوضاع العلوم الحديثة . لا عار على اللغة ان تقتبس . هي سنة الطبيعة بين الامم ، التي تتجاور ، او تختلط بالعلم والغزو . اذ لا تستطيع لغة واحدة ، مهما علا شأنها ، ان تقوم بحاجة التعبير عن كل شيء ، دون الالتجاء الى سواها ، والاستعانة بها .

هذه حال كل اللغات البشرية . جابه العرب ، في اول نهضتهم ، حضارة يونانية جبارة . حصل الاحتكاك ، فكراً وعملاً ، فاضطروا الى الاخذ . شيء طبيعي . فقالوا ، في تعريب منطق ارسطو ، ما لا نجرؤ اليوم على قوله . قالوا : الانالیطيقا (التحليل Analytique) الافودقطيقي (الايضاح Apodictique) . الديالقطيقي (الجدل

. (Dialectique . الطوبيقي (الموضـــوع Topique) .
القطوغوريوس (المقولات Catégorique) . السوفسطيقي
(المغالطة Sophisticisme) . الريطوريقي (الخطابة Rhétorique)
البيوطيقي (الشعر Poesie) . السولوجسموس (القياس Syllogisme) .
ارتماطيقي (الحساب Arithmétique) . اسطرونوميا (الفلك
Astronomie) . ارمانوطيقا (التناغم Harmonique) .
الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة Metaphysique) .

ليس عجيباً ان يكون الفكر العربي قد اضطر الى الاقتباس . الفكر لا يظل مكتوف اليدين امام فكر آخر . التشرب ناموسهما . التلاقح شرعهما . التزاوج قانونهما . ولقد كان هذا ايضاً حال اللغات الاوروبية يوم جابهت حضارةٌ عربيةٌ عملاقةٌ . قال الاوروبيون :

(البرقوق Abricot) (الجبر Algèbre) (الكحول Alcool)
(الكيميا Alchimie) . (الانبيق Alambic) . (امير Amiral) .
(العضادة Alidade) . (الخوارزمي Algorithme) . (لازورد
Azur) . (حشاشين Assassin) . (دار الصناعة Arsenal) .
(عربية Charabia) . (غرف Carafe) . (كافور Camphre) .
(ديوان Divan) . (قرمزي Cramoisi) . (صفر Chiffre) .
(شفّ Chiffon) (زرافة Girafe) . (فردة Fardeau) .
(الاكسير Elixir) . (جبة Jupe) . (ياسمين Yasmine) .
(هول Houle) . (الزهر Hazard) . (مطرح Matelas) .
(مسخرة Mascarade) . (مقابر Macabre) . (منارة Minaret) .
(مسكين Mesquin) . (مطرقة Matraca) . (رصيف Récif) .
(مسجد Mosquée) . (موميا Momie) . (طلسم Talisman) .
(سكر Sucre) . (صداع Soda) . (شروب Sirop) .

(طبل) Timbale . (طنبور) Tambour . [١]

ويقول غوستاف لوبون ، في كتابه حضارة العرب ، ان اللغة العربية كانت ذات اثر عميق في اللغات اللاتينية . وقد تركت هذا الاثر في فرنسا ذاتها . ثم ذكر لوبون ، عن سيديو ، ان اللهجات السائدة في ولاية اوفرن ، وولاية ليموزان الفرنسيتين ، محشوة بالكلمات العربية. وان اسماء الاعلام فيهما ذات مسحة عربية [٢].

ان لغة الشعب تتسع باتساع حضارته . تغزر مفرداتها بكثرة حاجته ومرافق حياته . وتسمو اساليبها برقي تفكيره وتهذيب نفسيته . اذ لا يمكن ان ينتقل الشعب من حالة الى حالة دون ان يطرأ تغيير على قوامها . ولا ان يحصل هذا الانتقال ، بدون ان تستحدث اساليب في التعايش جديدة ، يستشرف بها الناس انماطاً من الحياة ، لم يألفوها قبلاً . هذا التطور يحدو اللغة على فتح منافذها ليتجدد دمها بالتعريب . وقد شاءت الطبيعة ان تزود كل لغة بشرية بطرق خاصة تقبل فيها المفردات الغريبة . ففي العربية الوضع ، والاقتباس ، والاشتقاق ، والقلب ، والنحت ، والابدال ، الى ما هنالك من طرق تساعد على جعل اللغة غنية بالمفردات المستحدثة .

ان تلك الفئة المتزمتة ، الموسومة بالتحفظ والاستمساك ، تضعف يوماً بعد يوم . لانها تجهل ما للحياة من سطوة على اللغة . والحياة لا تعاند ولا تقاوم . هي ذاتها تفرض التطور الخلاق . تلك الفئة تقفل باب الاجتهاد ، والابتداع ، وبذلك تعمل على

---

١) راجع الملحق لقاموس Emile Littré ،سنة ١٨٨٦، Hachette ،باريس .

٢) راجع حضارة العرب تأليف غوستاف لوبون ، ص ٥٣٣، ترجمة عادل زعيتر ، الفصل الخامس .

تمويت اللغة العربية . وقد نسيت ان اللغة لم تخلق دفعةً واحدةً . هي حياة تتدرج حسب مقتضيات الحاجة الى التعبير . تتبدل مع الاحوال وتتحول مع كل تبدل . اتريد تلك الفئة المتمسكة ان تبقى عربية القرن العشرين كما كانت في الجاهلية وصدر الاسلام ؟ لقد تحولت في كل عصر من عصورها . اتصل العرب بالفرس ، والسريان ، والكلدان ، واليونان ، والاحباش ، والروم ، فكان لزاماً على ظروفهم ان تتغير ، وعلى تطوراتهم ان تتسع ، وعلى المفردات ان تستحدث لديهم .

نحن اليوم في اشتباك حضاري مع الغرب . من السخف ان لا تشتبك العربية مع لغاته . ومتى اجتمعت لغتان ، او اكثر ، في بلد واحد ، تأثرت بعضها ببعض . والعربية اليوم ، بفضل الاحتكاك الدائم ، تتغير الى حد بعيد . نراها تسيغ ما تأخذه من لغات اوروبا ، وتحوله الى عناصرها ، بدون ان تترك له المجال كي يغير في قوامها الاصيل . وهذا دليل على انها مجهزة احسن تجهيز للسير في ركب الحضارة الحديثة . فالاشتقاق يرجحها على اكثر اللغات الغربية الحية التي لا تستطيع ان تستحدث الا من اصول اغريقية او لاتينية . فحالتها اليوم كحالة اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والالمانية . يعني انها تحمل فيها كل خواص الحياة للارتقاء ومجاراة اللغات الزاخرة بالمصطلحات العلمية . ان كل لغة تكبو في بدء نهضتها . وهو امر عادي . لكن هذه الكبوة لا تكون لغير حقبة من التاريخ ، فقط ، حتى اذا ما اراد الشعب ، الذي يتكلمها ، ان تصبح ذات ثروة تعبيرية ، نشطت ، ولحقت بغيرها من الامم المتمدنة .

ليست اللغة جوهراً كائناً خارج الانسان في عالم المثل الارفع . ذلك تجميد لحرارة اللغة التي هي كائن حي . ينمو ، ويتطور ، ويشيخ .

وهو البرهان القاطع على انها من الانسان . على انها الانسان ذاته . على انها خاضعة لارادة الانسان الخلاقة . من الجهل الاعتقاد ، اذن ، إن العربية لا تتطور . انها باقية كما كانت قديماً . ان المجلات ، والصحف ، وترجمة الكتب العلمية ، والاحتكاك بالاداب الغربية... من الجهل الاعتقاد ان كل هذا لم يجعل الاسلوب العربي يتطور نحو السهولة والوضوح وفقاً لحاجات الشعب . كان من اثر ذلك ان تراجع السجع الغليظ والحشو المملّ. قلّ اسلوب العربية القديم. وصارت الالفاظ الين والبق واطوع لمماشات الحياة... واكثر انقياداً لرغبات الشعب. الذين يريدون ان يحافظوا على اللغة العربية ، لتظل كما كانت قديماً ، يقفون بصراحة في وجه التقدم . هؤلاء اعداء تطوير الشعوب العربية . اذ لا يمكن ان يتحضر الشعب في سياسته ، واقتصاده ، وعلومه ، ولا يتحضر في لغته، التي هي جزء لا يتجزأ من وحدة الامة. عليها اذن ان تساير مجموع تلك الوحدة. هي من الشعب والى الشعب تعود .

ظنت هذه الفئة ان انشاء المجامع اللغوية يحفظ اللغة من الانهيار . فكانت مجامعنا اللغوية . وكان اعضاؤها من اللغويين . لكن مجامعنا تلك لم تنجح في مهامها . ولغويونا اولئك لم يفلحوا اطلاقاً .

وبديهي ان نطرح هنا السؤال الآتي : لماذا اخفق اللغويون ، وفشلت المجامع اللغوية في ايجاد المصطلحات ، التي تعبر عن مشخصات عصرنا ، مع ان اللغة العربية – كما وصفها الواصفون – هي من اغزر الالسنة مادةً ، واوسعها تعبيراً ، وابعدها للاغراض متناولاً ، واطوعها للمعاني تصويراً ؟ سبب هذا الفشل الاعتقاد الراسخ ، في اذهاننا ، ان وضع المصطلحات امر لغوي بحت . هذا هو الشيء الذي جعل مجامعنا تخفق دون ان تظفر الآمال ببلة من ابحاثها في اللغة . ان اللغويين يعرفون اللغة علماً . لكن قل منهم من احكمها عملاً ،

لأن استعمالها بتأديب وتهذيب (اي توخي السهل دون الصعب ، والعذب دون المستكره ، والجزل دون ما يتجافى عن مضاجع الرقة) هذا الاستعمال يتطلب ذوقاً سليماً ، هو حس في القلب ، اكثر مما يتطلب مهارة في صناعة الاعراب ، والاشتقاق . ان الذوق السليم انفع ، في الاستعمال ، من ذوق التعليم .

المجامع اللغوية لا تحافظ على سلامة اللغة . ولا تستطيع ان تجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ... وملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر . فلماذا لا تجيز المجامع اللغوية بعض الالفاظ الاعجمية ، عند الضرورة ، على طريقة العرب في تعريبهم . المجامع اللغوية لا تقوى على فرض ارادتها التي كثيراً ما تجيء متزمتة في فهمها للغة العربية . صاحب الكلمة هو الشعب . اي الاستعمال .

من المؤسف ان لا تكون تلك الذهنية (ذهنية الفئة المتزمتة) قد طوت صفحتها ، وحاولت ان تلين في موقفها ، مدركةً ان اللغة حياة ، يجب عليها ان تنمو وفق مجالات الواقع . ففي مؤتمر ادباء العرب الثاني ، الذي عقد في سوريا (شهر اوكتوبر) قام الدكتور منصور فهمي ينادي بالذهنية عينها . قال في بحث له تحت عنوان «اللغة العربية ومجمع القاهرة» ما يلي :

لا يضيرنا أن نتوسع في مقاييس اللغة ، ونستزيد من صنعها ، لأن ذلك أفضل للغة ، وأبقى عليها من أن يقتحم سياجها ألفاظ غريبة لا تنسجم مع طبيعتها ، ولا تلبث أن تسري في جسدها وتتكيف حول مادتها سريان الداء المميت ، والتكيف المقيت القاتل . . . لا تحتاج لغتنا إلى الأساليب ، أو إلى العبارات الأجنبية . إن بإمكاننا دائماً أن نطورها من مادتها ، أو من أساليبها المختلفة (١).

---

١) راجع مجلة «العلوم» ، العدد التاسع ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ ، صفحة ٥٣ وما يليها .

اعتراض . ما من لغة بشرية تكتفي باساليبها ، فقط ، دون ان تحتاج الى العبارات الاجنبية . ولقد دلت العربية ذاتها ، خلال التاريخ ، انها مدينة للغات الاجنبية بكثير من مفرداتها العلمية ، وعباراتها الادبية . قول الدكتور فهمي ليس علماً . أن نقف في وجه الالفاظ الغريبة وقفة" اعتباطية" فهذا لا يكون افضل للغة العربية . ولا ابقى عليها . اذا اقتحمت الالفاظ الغريبة سياج العربية ، وتكيفت حول مادتها ، فهو دليل الى ان تلك الالفاظ الغريبة ليست داء مميتاً ... بل الى انها تنسجم مع طبيعة اللغة العربية ... والى ان هذه تتقبل ذلك الاقتحام . ومتى حصل الاقتحام كان برهاناً عن انه من صميم الحياة . ومنطق الحياة فوق منطق واهمتنا . ان توسعنا في مقاييس العربية يجب ان يكون على اساس فتح نوافذها على مروج غير مروجها. والاما كان للقياس نفع يذكر . ثم يقول الدكتور فهمي بامكاننا دائماً ان نطور اللغة العربية من مادتها . لكن هل يستطيع ان يحدد تلك المادة ؟ ان يعيّن خط بدايتها وخط نهايتها ؟ ويقول ايضاً :

إن ضرورة التساند من أجل سلامة اللغة العربية قد تستوجب تعبئة جميع القوى الفعالة لكي تسخو الحكومات العربية بسلطاتها وإمكانياتها ووسائلها ، ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .. . إن الذوق العام قد يضل ، ويجحد، وينحرف، فيصبح بحاجة إلى التقويم والهداية. والناس وإن خلقوا أحراراً ، فإن حرياتهم قد قيدتها مثل وحدود ، ومن الخير أن ترد الأمور إلى مستوياتها في المثل الرفيعة ، وفي الحدود السديدة المنيعة . ومهما يكن للأفراد من حق الدفاع عن حرياتهم ، فإن للجماعة ومظاهر هذه الجماعة أن تحاسبهم لصالح المجموع . ولعل أكثر الدساتير العصرية ، في زمن الناس الحاضر ، يقيد من حرية الأفراد لصالح الجماعات واللغة (١).

اعتراض . في كلام الدكتور فهمي بعض الغموض . ما الفرق

---

١) المصدر ذاته .

بين الذوق العام والمجموع ؟ كيف يضل الذوق العام ، ويجحد ، وينحرف ، فيصبح بحاجة الى التقويم والهداية ؟ وكيف يأتي المجموع بعد ذلك ليحاسب الذوق العام ؟ نحن نعلم ان الذوق العام هو ذوق سليم . وان الذوق العام ينبثق من المجموع . اذ لا مجموع والا وله ذوق عام . وهذا معناه ان الذوق العام هو الذي تفرضه الحياة . والحياة صادقة . متى ارتفع الاستعمال الفردي الى مستوى الذوق العام فصار استعمالاً مجموعياً (اي معترفاً به من لدن المجموع) اصبح هذا الاستعمال هو الاحق من غيره . اصبح من صلب الحياة . من صميم الكيان البشري . اذن لا دخل للحكومة ، في مثل هذا الميدان ، الذي هو فوق ارادتها . الذوق العام اوسع من الحكومة . وهو الذي يفرض هذه العبارة او تلك . ذلك انه من قلب الامة لا من قلب الحكومة . الامة ارحب من الحكومة واقرب الى منطق الحياة . الذوق العام ارحب من الفرد واقرب الى منطق الحياة . اذا كنا اليوم نقول «تلفن» ولا نقول «هتف» فلأن كلمة «تلفن» يفرضها الذوق العام الذي هو ذوق سليم . الذي هو ذوق المجموع . والذي هو منطق الحياة . سلطة الحكومات العربية كلها لا تستطيع ان تطرد «تلفن» لتحل محلها «هتف» . ارادة الامة فوق ارادة الحكومة . ارادة الشعب فوق ارادة الحكومة . والامة هي التي فتحت ميدان الاستعمال لكلمة «تلفن» فاصبح الدخيل اصلاً . هذا هو منطق الحياة ، ولا دخل للحكومات ههنا . يقول ايضاً :

كان كارلوس الخامس المسمى شارلكان ، يقول إني إذا خاطبت الله ضارعاً خاطبته بالاسبانية . وإذا خاطبت النساء متحبباً خاطبتهن بالإيطالية . وإذا خاطبت جوادي زاجراً خاطبته بالألمانية . وإذا خاطبت الناس عامة خاطبتهم بالفرنسية . فهل نغالي إذا قلنا ان هذا العاهل لو كان يعرف اللغة العربية لغني بها عن غيرها في

مواقفه الأربعة ؟ فقد جمعت فخامة اللفظ ، وجمال الأسلوب ، إلى قوة الأداء ، وفصاحة التعبير .

اعتراض . هذا الكلام ليس علماً . لكل لغة عبقرية خاصة بها . ولا يعقل ان تجمع واحدة منها كل الخصائص العائدة الى الانسان الأكمل. واذا توسعناقلنا ان كل لغة تجمع ،على صعيدها الخاص، فخامة اللفظ وجمال الاسلوب الى قوة الاداء وفصاحة التعبير . نكرر ما قلناه لا زعامة في عالم اللغات ولا عبودية ايضاً . اللغة مرتبطة بالبيئة الجغرافية ، ولا يمكن للغة العربية ان تحوش خصائص كل البيئات الجغرافية (الاسبانية ،والطليانية ،والالمانية ،والفرنسية) ليكون شارلكان قد غني بها عن غيرها في مواقفه الاربعة ، لو كان يعرفها . هذا تزمت عاطفي ، وتحيز اهوائي ، جانحان عن العقل السليم . وهو الضرر عينه الذي نوقعه باللغة العربية .

كردة فعل لهذه الفئة المتزمتة قام البعض ينادي بعجز اللغة العربية اساساً عن كل مجاراة لمستلزمات الحضارة الحديثة . منهم من قال بابقاء التعليم عندنا –لاّ سيما العالي– باللغات الاجنبية ، كي لا ننقطع عن النشاط الفكري العالمي .اذا جعل التعليم العالي باللغة العربية تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العالمية . اذ تصبح اللغة القومية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدم [١] ومنهم من قال بابقائنا متعددي اللغات– الام. قال ميشال شيحا :

العربية لغة رائعة ، وهي لغة ملايين من الناس . ونحن لبنانيي القرن العشرين ، ما كنا من نحن لو أننا تخلفنا عن أن نصبح سادتها ، كما كنا منذ مئة من السنين . ان نعرفها ، ونعلمها بأسلوب خاص رفيع ، وبطريقة نحفظ بها – إلى جانب هيبتنا

---

١) راجع هذا الرأي للأب لا منس في كتاب فليكس فارس «رسالة المنبر إلى الشرق العربي»، ص ٧١ .

ومستوانا – الحظ بأن نعطي دائماً العالم العربي أكبر كتابه ، وأكبر صحافييه ، وأكبر شعرائه ، فذلك إنما هو لنا مطمع شرعي .

ولكن ألا نلاحظ بداهة ، أن بلداً كلبنان ، إذا لم يتكلم لسانين (أو ثلاثة إن أمكن) أقل مايقال فيه انه بلد أبتر . الحقيقة اننا نختزن هنا ، منذ القدم ، مجموعة من اللغات الحية والميتة . وإلا ماذا كان بمقدورنا أن نسوقه إلى الشرق ، لو لم نأخذ عن الغرب ، والعكس بالعكس . وكيف كان يمكننا أن نحفظ ، وننمي الروابط اللازمة التي يفرضها علينا التعليم في جميع مراحله – والتي توجبها المباحث العلمية ، والأسفار ، والتجارة ، وسياحة لبنانيينا المهاجرين إلى أنحاء العالم كله ، فضلا عن الضرورات الحاسمة في السياسة ، التي يوجبها موقفنا الجغرافي –

قلت كيف نحفظ كل هذا ، لو لم يكن لنا ، إلى جانب اللغة العربية ، وبمقدار اتقاننا إياها ، إحدى اللغات العالمية ؟ لقد كان لبنان متعدد الألسنة ، قبل اكتشاف الأحرف الأبجدية . وهو أمر ، بحد ذاته ، مدعاة تفوق . ومنذ فتح الاسكندر ، ما فتىء لبنان ، بصورة رسمية ، بلداً مزدوج اللغة ، على أقل تقدير (١)

الفئة الثانية لا تختلف عن الفئة الاولى . هما شيء واحد ، من حيث النتيجة ، التي هي قتل اللغة العربية . ترتكز كالسابقة ، على نظرة خاطئة في اللغة ، على فصل المبنى عن المعنى . هذه الفئة تتألف من الذين فهموا اللغة العربية ، على اساس سياسي ، ولا دخل للسياسة في فلسفة اللغة . وتتألف ايضاً من الذين جهلوا العربية . من الذين جهلوها لأن احتلال الاجانب لنا قلب التعليم (لاسيما العالي منه) فاصبحت العلوم تدرس باللغات الاجنبية . وهكذا زاد عدد الملمين بهذه ، وضعفت الملكة العربية ، فلم يبقَ الا القول بامكان معايشة السنة عديدة في الامة ذاتها .

الرأي القائل بابقاء التعليم العالي في اللغات الاجنبية ، لئلا تنعزل البلاد عن الحركة العامة ، يقوم على فهم خاطىء لهذه الحركة .

---

١) راجع كتابه Liban d'aujourd'hui ، ص ٥٥ .

نقول ، بادىء بدء ، ان تمسك المرء بلغته القومية يجب ان يكون اكثر من عمل كتابي، بمفهوم التجارة. اللغة القومية هي من جملة المرتكزات الانطولوجية (اي الجوهرية) التي يدافع الشعب عنها فكراً وعملاً . هي حاجة ايمانية ، ينتفض الوجدان عند مساسها ، بغية الذود عنها .

لكن الانطولوجي لا يقبل التجزئة . لايكون في زاوية ، من النفس او الشعب ، دون ان يكون في زاوية اخرى . لا يكون في ناحية ، من كيان الامة ، دون ناحية . الانطولوجي لا يتكسر . لايتفرفط . لا يتفكفك . لذا لا يمكن للعربية ان تكون لغتنا القومية بمعزل عن التعليم العالي . هذا التعليم جزء من الامة ، لا يجوز فصله عنها، دون تعطيل جوهرها . اذن اللغة القومية هي لغة الدولة كلها . هي لغة المدارس ، في جميع مراحلها ، من ادناها الى اعلاها . هي لغة الصحف ، والكتب ، والمجلات . هي لغة المكاتبات الرسمية . هي لغة الوعظ والاوامر . هي لغة النثر ، والشعر ، والقصة ، والتاريخ ، والقانون، وتدوين العلوم . هي لغة الناحيتين ، الوجدانية والادارية ، في الدولة . هي لغة الامة اطلاقاً .

هكذا يبين لنا التناقض الكائن بين ان نقول : يجب على اللغة العربية ان تكون لغة المراحل الابتدائية ، والتكميلية ، والثانوية . وأن نقول : على التعليم العالي ان يبقى باللغات الاجنبية لئلا تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة . اذا كانت اللغة القومية خيراً في المراحل الاولى فهي خير ايضاً في المراحل الثانية اي العالية . اللغة القومية خير دائماً على الامة . اذ بدونها لا يستطيع الشعب ان يصل الى عفاف الشعور بعلو ذاتيته . بسمو شأنه . بحريته الكاملة . بدونها لا يقدر ان يسهم في الحركة العامة لأن الاسهام في الخارج يجب

ان يكون من الداخل . هذا هو الاسهام الحق الايجابي الشريف الصحيح الباقي على الدهر . امــا ان يهمل الانسان معطياته القومية ، بغية الاسهام في الحركة العامة ، فهذا تزلف . هذا زنى على صعيد فكري . هذا فهم خطّاء لحقيقة الانسان وتخريب لبناء قوميته .

الحركة العامة في الخارج هي مجموعة حركات خاصة من الداخل . هي مجموعة جوانيات الشعوب ، تفاعلت بعضها مع بعض ، فاذا بهذا المجرى العريض في الخارج ، الذي هو الحركة العامة . اذا هجر كل شعب قوميته ، بداعي الاسهام في الحركة العامة ، اضمحلت هذه الحركة نفسها . ولم ندرك ، في آخر الامر ، الا انسانية هوائية لا وجود لها البتة . تلك مثالية خاوية فارغة مهترئة .

لانتقال الحضارة، من شعب الى شعب، شرط اساسي : أن تبقى لغة الناقل . نعني ان الترجمة هي التي يجب ان تلعب دور الوسيط . نعني ان لبنان المترجم ينبغي له ان يسبق في الزمن لبنان المبتكر . ان رقي الامم الصحيح لا يقوم اولاً الا على الاقتباس . الترجمة قبل الابداع . والنقل قبل الخلق . هذا هو منطق التطور الخلاق في حياة الشعوب الناهضة . هنا يبين لنا الدور الخطير الذي دعيت اللغة العربية الى ان تلعبه اليوم . فاطلاعنا على الحضارة الغربية لن يحقق فينا روح الفلسفة الغربية الا اذا ترجمت . لذا يجب على نهضتنا بداءة ان تكون حركة نقل وشرح وتعليق والا بقينا مقلدين . وضللنا جادة الحق . هذه النهضة ، العربية اللسان ، قد اخذت ترى النور .

لا ننكر ما في التجربة من مصاعب شائكة. فمسابك اللغة العربية

لا تتسع الآن لكل مقالات الفكر . لكن هذا النقص، العارض ، لا يبرر غضّ طرفنا عنها ، بل يجب علينا ان نسايف من اجلها ، فنعجنها من جديد ، وندعكها طيباً ، لنجبلها على الكرم . علينا ان نزج بانفسنا في الحاجة الى مختلف التعابير . الحاجة هي التي تحدونا على ايجاد الالفاظ مهما كانت بعيدة المنال . الالفاظ كائنات حية ، لا تخرج الى عالم النور الا من باطن الفكر، بدافع الحاجة، لان اللغة بنت الالزام،لا تتطور الا بتطويرنا اياها . فاذا كنا لا نزج بانفسنا في مثل هذه الحاجة ، كي نشعر بضرورة البحث عن الكلمات ، لا نرى كيف نستطيع ان نزود اللغة العربية مصطلحات ، نحن بامس الحاجة اليها. نعلم كلنا ان افضل الطرق –لمن يريد ان يتكلم لساناً غير لسانه– ان يعيش زمناً بين ظهراني الشعب، الذي يتكلم هذا اللسان. والمقصود بذلك هي الاناخة للحاجة كي يتمكن صاحب العلاقة من ان يزاول اللسان المرغوب فيه . حينئذ يتغلب على الصعوبات التي تعترض القوى البشرية . موقفنا اليوم من اللغة العربية كموقف الذي يريد ان يتكلم لغةً ثانيةً . علينا ان نزج بانفسنا في وضع يشعرنا بالحاجة . اذ ذاك نبحث عن مصطلحات . واذ ذاك فقط نجدها .

نعود الى القول بان اللغة العربية فقيرة بالمصطلحات العلمية. اذن ينبغي لنا ان نحافظ على اللغات الاجنبية في التعليم العالي . هذا القول لا يرتكز ، اصلاً ، على قاعدة ثابتة . ذلك لان المصطلحات العلمية لا تكوّن كل اللغة العربية . ان اللغة ، عامةً ، تتألف من (١) مادة فكرية (٢) من قواعد نحوية ، وطرق بلاغية (٣) من مفردات ادبية ، ومصطلحات علمية .

نبدأ بالمادة الفكرية . هذه المادة لا تجد العربية ادنى عقبة للتعبير عنها . لغتنا تتسع ، وضعاً ، لكل مادة فكرية ، مهما بعدت هذه

المادة ، وسمت ، ودقت . شأن العربية في ذلك شان كل لغة انسانية . نكرر ما قلناه سابقاً: لا اقطاعية في عالم اللغات . لا زعامة . لا ديكتاتورية . لا افضلية لهذه على تلك من حيث الجوهر . فبمقدور لغة الزنوج ان تأتي بما اتت به اللغة الالمانية ، مثلاً ، في اعوص كتبها الفلسفية . او اللغة الانجليزية في اشف كتبها الشعرية . لكن هذا الاتيان يتوقف على ارادة الشعب الزنجي . المادة الفكرية ليست وقفاً على شعب دون شعب . وبالتالي على لغة دون لغة . هي جوهر عام في متناول كل وجود خاص .

اما القواعد النحوية والطرق البلاغية فهي تتسع ايضاً وبكثرة في اللغة العربية . شأن هذه فيها شأن كل لغة انسانية تتصف بعبقرية خاصة . لكل لغة روحها وبنيانها ومجراها . لكل لغة قواعدها النحوية وطرقها البلاغية التي لا تقف على شعب دون شعب . على لغة دون لغة . الفاعل كائن في جميع اللغات . المفعول كائن في جميع اللغات . اما ادعاؤهم ان قواعدنا النحوية اصعب وطرقنا البلاغية اعوص فهو ادعاء خطّاء. الامور هنا نسبية . لكل لغة بيان ، وروح ، ومجرى ، وعبقرية خاصة بها . في كل لغة جوانب صعبة وجوانب سهلة . والتنوع في العبقرية لا يعني تفاوتاً في القيمة .

نصل الى المفردات الادبية . لا نعتقد هنا ان احداً يجرؤ على اتهام العربية بالفقر . لقد عرف شعبها بلطافة حسه ، ونصاعة فكره ، وصفاء ارتقائه . عُرِف بحسن بيانه وفصاحة لسانه . عُرِف بشغفه العريض لتعظيم شأن لغته مما حداه على الايمان بانها اشرف اللغات قاطبةً واوسعها . الحق انها جميلة كل الجمال ، غنية كل الغنى ، مطواعة الى حد بعيد . تتجلى فيها الصنعة الدقيقة الشفافة

الرقيقة . لقد كان للعرب حس رهيف ، جعله يضع الفاظاً لكل ما شاهده من المعاني ، حتى كثرت المفردات ، فجاءت غزيرة ً جداً . ولو رجعنا الى خزائن تلك اللغة ، نفتش عن الكنوز المدفونة فيها ، لعثرنا على مفردات لا يعبر عنها في اللغات الاجنبية الا بعبارات .

عني العرب كثيراً بالتصليح والتهذيب والاحكام . لم يدعوا فكرة ً واحدة ً الا راحوا يبحثون لها عن وضع في لغتهم . شغفوا كثيراً بتأدية الاغراض واظهار المرامي . وقد حاولوا ان تكون الفاظهم اوقع في الآذان واحب في القلوب واذهب في الدلالة . فاجادوا في التركيب اللائق ، وبرعوا في الاشتقاقات القياسية ، وحلقوا في صوغ الفاظ تعبر عما لا نهاية له من المعاني البعيدة . وهي كلها مزايا فائقة تجعل العربية خالدة كسواها . وقد تجعلها عند البعض راجحة على اليونانية واللاتينية .

تبقى قضية المصطلحات العلمية . هنا بيت القصيد . هنا الملطش الحساس لأن المصطلحات العلمية هي ما يتذرع به اخصامها للحط من كرامتها وابقاء تدريس العلوم الجامعية باللغات الاجنبية .

لا شك ان ميدان اللغة العربية ضيق في العلوم الحديثة. هذه اللغة لا تقوى، في شكلها الحاضر، على ان تعبر عن كل المستلزمات التقنية. لكن المصطلحات العلمية ليست كل اللغة العربية لنرميها بجرم شامل قاطع . المصطلحات العلمية لا تكوّن غير عشر اللغة العربية . او اقل . وقيمة اللغة ، بمفهومها الدينامي ، هي في وحدة الجملة . قيمتها في ان تفسح لنا المجال كي نعبر عن المادة الفكرية . كي نخفف من لواعجنا . كي نتعزى بالتعبير وفي التعبير . كي نتحاشى احتقان المعاني في الصدر . وقد اوضحنا كيف ان هذه التعزية لا تحدث شبيّعة الا في لسان واحد . في اللغة – الام التي هي اللغة القومية .

فمن الحيف ، بل من الظلم الانساني ، ان نضحي بالمادة الفكرية ، والقواعد النحوية ، والطرق البلاغية — التي تكوّن اللغة ، بمفهومها الديناميي ، والتي تكر عفو الخاطر على اللسان — من الظلم حقاً ان نزدري بها كلها في سبيل حفنة قليلة من المصطلحات العلمية . المادة الفكرية ، بفحواها الواسع ، هي المادة الانسانية . هي التي ترفع شأن العقل . فيزدهر بها . ويعلو . ويتسع .

معنى هذا ان المصطلح العلمي ليس عقبةً كأداء . ولا يجوز حصر اللغة فيه والا نكون قد فهمناها فهماً سكونياً . مومياثياً . لذا كان التغلب على المصطلح سهلاً للغاية . هناك الترجمة ، وهناك التعريب . اذا لم نستطع ان نترجم مصطلحاً علمياً اجنبياً بمصطلح علمي عربي ، لجأنا الى التعريب ، فلفظناه كما هو لكن بحروف عربية . هكذا يصبح الدخيل اصيلاً ، مع الزمن ، اذا كانت شروطه مؤاتيةً . والا يظل دخيلاً بلفظه . ولا بأس ما دامت هذه الظاهرة طبيعية في لغات العالم كلها . لا عار اذن اذا اقتسنا بتلك الظاهرة . اكثر من ذلك . نقول بانها الكفيلة وحدها بابقاء اللغة العربية خالدةً بين اللغات العالمية الراقية .

المهم عندنا ان نلفظ بلغتنا الام المادة الفكرية والقواعد النحوية والطرق البلاغية . على هذه المعطيات يتوقف جوهر الانسان . وتقوم انطولوجية اللغة . لا فرق بين ان نقول « تلفون » وان نقول «هاتف» . كمصطلح واحد ، في ذات ذاته ، لانرى بينهما فرقاً . ما دامت كلمة «تلفون» تنطبق على الوزن العربي وتمكننا من ان نشتق فعل«تلفن». ما دامت الحروف المؤلفة منها (أي التاء،واللام، والفاء ، والواو ، والنون) هي حروف عربية، لا نرى فرقاً بينها وبين كلمة «هاتف» . المهم في ذلك هو الاستعمال . والاستعمال

اجازها. اذا كانت لفظة «هاتف» لم تستطع ان تصرع لفظة «تلفون» في مجالات الاستعمال فهذا دليل الى ان اللفظة الثانية اي «تلفون» اكثر قابلية للحياة من اللفظة الاولى . لا مانع من ان نقول : دكْتَرَ (Docteur) وأكّسَ (Axe) وكَرْتَزَ (Descartes) ورَوْدجَ (Rodage) وَشوْفَرَ (Chauffeur) وبوْمَرَ (Point mort) . لا مانع من ان نعرب معظم المصطلحات العلمية . لا فرق هنا بين الترجمة والتعريب .

لكن الفرق عظيم بين ان نحدد الشيء ، الذي يعبر عنه ذلك المصطلح ، بلغة اجنبية او بلغة عربية . التحديد مادة فكرية . هو جملة . وفي الجملة وحدة اللغة . فيها تمارس القواعد النحوية ، والطرق البلاغية ، التي تكوّن جوهر العقل الانساني . هذه المعطيات اللغوية هي التي تحمل طابع الشعب ، وعبقريته ، وتاريخه ، وكيفية اطلاله الانطولوجي على الحقيقة المطلقة . لا مانع بل واجب على التغيير ان يتطرق الى المصطلحات العلمية . اما ان تغير القواعد النحوية والطرق البلاغية ... وهذا معناه استبدال لغة بلغة ... فهو تخريب لجوهر الطبيعة البشرية .

المصطلحات العلمية لا تكوّن وحدها بنيان اللغة العربية . هي جُزَيْء بسيط من هيكلها الضخم . من هنا الخطأ في أن نضحي بالعربية من أجل مصطلحات قليلة العدد . هذا فهم سكوني للغة . هذا جهل منا لفلسفتها . والأغرب من ذلك قولهم بأن اللغة العربية تقف حاجزاً في سبيل التقدم . جميع الأدلة التاريخية والإجتماعية والنفسية تشير إلى أن الأمة لا تتقدم بمعزل عن لغتها الأم . الأمة الراقية لا تكون لغتها راقية جزئياً . لا تكون صالحة للأدب وغير صالحة للعلوم . لِمَ لم تقل أوروبا مثل هذا القول ، في القرن الوسيط ، يوم كانت تتلمذ

على يد العرب ؟ ألم تكن لغاتها ، عصر ذاك ، دون اللغة العربية ارتقاءً وغنىً ، في المصطلحات العلمية ؟ لِمَ حرصت عليها ، إذن ، ولم تجعل التعليم العالي باللغة العربية ، لئلا تنعزل شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة ؟

تسرب الحركة العامة ، من شعب إلى شعب ، يجب أن يتم عن طريق الترجمة ، كي تجدي نفعاً في حقلي القومية والإنسانية . وحدها الترجمة تشعرنا بزخم الأمة. تعرفنا الحد الذي يذهب إليه الإنفتاح الوجداني. تصون قومية اللغة . وتحافظ على إنسانية الفكر . وتغني ثروة اللسان بالمصطلحات الجديدة . وتُخرجه من قديمه . وترفعه إلى مصاف الألسنة الراقية . ما من نهضة فكرية حقة إلا وكانت الترجمة اسها .هذا يتم إذا تعزز التعليم العالي ، أي الجامعي ، فأصبح باللغة القومية . التعليم الثانوي لا يشتمل على نواح تخصصية . فإذا بقيت اللغة الوطنية ، في مستواه فقط ، ظلت نحيلة الجسم . التخصص يقوى في المرحلة الجامعية . هنا يواجه الإنسان زخم العلوم . يواجه عرمة المصطلحات الغريبة . يواجه الفكرَ في أسمى درجاته . هنا تستطيع اللغة أن تطل على مروج واسعة غير مروجها . بهذا الإحتكاك على صعيد شاهق تخرج اللغة من قميصها العتيقة إلى واحدة أجد .

نأتي الآن إلى الذين يريدون أن يبقى لبنان متعدد اللغات . قد يكون للظروف السياسية أثر في تكوين ذلك الميل الكوزموبوليتي عند اللبناني الذي يعتقد أنه للجميع على السواء . الإنسانية لديه غير كائنة في دائرة خاصة . لذا يفضل أن يظل الحيز الذي تحاش فيه الحضارات كلها . هذا التفكير ، الذي جاء ردة فعل للفئة المترمتة ، هو الذي حداه على الظن أنه ملتقى الألسنة ، كما أنه ملتقى الحضارات . فلم يرد أن يلقي مرساته في مرفأ واحد من مرافىء اللغة. لذا نزع إلى التكلم بجميعها.

نريد أن نكرر هنا ما قلناه سابقاً . إذا كان المقصود بتعدد اللغات ، أو الألسنة ، أن يطلع الإنسان بالإضافة إلى لغته الأم ، ذات المركز الأول ، على لغات أخرى تلعب دور المساعدات لها ، دون أن تتعدى حدّ المساعدة (Le biglottisme) إذا كان المقصود هو هذا الفحوى فنحن ممن يؤيدونه لأنه ممكن بل واجب في قرننا العشريني . وقديماً قال الحليّ في حفظ اللغات :

بقدر لغـات المرء يكثر نفعه ٠ وتلك لـه عند الشدائد أعوان

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً فكل لسان بالحقيقة إنسان

أما إذا كان المقصود بتعدد اللغات ، أو الألسنة ، أن يتقن الإنسان الإتقان ذاته أكثر من لغته الأم ، بحيث لا يعود ثمة لغة أم تلعب الدور الأول ، ولغات أخرى تلعب دور المساعدات لها (Le bilinguisme) إذا كان المقصود هو هذا الفحوى فنحن ممن يرفضونه لأنه تخريب لكيان اللطيفة البشرية . أكثر من ذلك . لأنه غير ممكن إطلاقاً .

هذا المقصود الثاني لم يحصل يوماً في تاريخ فرد . ولا في تاريخ مجتمع . ولا في تاريخ الفكر الإنساني . هنا دائماً وأبداً لغة أم واحدة . أما الباقية فبنات لها مساعدات . واللبناني ذاته لم يشذ عن هذه القاعدة. هو Biglotte وليس Bilingue . ذلك أن من اللبنانيين من تبنوا الفرنسية لغة أم لهم فجاءت الإنجليزية أو العربية في المقام الثاني . ومنهم من تبنوا الإنجليزية لغة أم لهم فجاءت الفرنسية أو العربية في المقام الثاني. ومنهم من تبنوا العربية لغة أم لهم فجاءت الفرنسية أو الإنجليزية في المقام الثاني . المهم في نظرنا أن هناك لغة أم واحدة عند اللبناني . وميشال شيحا عينه لم ينحرف عن هذا الأساس ، الذي ندافع عنه ، والذي نعتبره صامداً في وجه النقد . لقد ترسخت الفرنسية في قلب

شيحا فجاءت اللغة العربية ثانية" . اللبناني كفرد لم يستطع أن يكذّب هذا الناموس البشري .

أين الخطأ ؟ الخطأ هو في أن لبنان كوحدة شعب لم ينسجم مع هذه الحقيقة . هنا وقعت الواقعة . فشُطّ عن الصواب . لم ندرك قيمة اللغة الأم . لم ندرك الفارق الكائن بين Biglotte و Bilingue . لقد جهلنا فلسفة اللغة ، فكان أن سرنا عكس الواقع البشري ، دون أن ننتبه إلى الخطأ التربوي ، الذي ارتكبته مناهجنا التعليمية . دون أن ننتبه إلى الشق الذي أقمناه بين اللبناني كفرد ولبنان كوحدة شعب. لقد رأينا أن اللبناني كفرد ذو لغة أم واحدة . إما العربية ، وإمـا الفرنسية ، وإما الإنجليزية . وبذلك يبقى في ظل القاعدة البشرية .لكن ما هي لغة لبنان الأم ؟ سؤال لا جواب عنه ، أو بالأحرى ، لا لغة أم لـــه .

لو كانت الفرنسية لعمت هذه اللغة جميع نشاطاته الإجتماعية . لو كانت الإنجليزية لعمت هذه اللغة جميع نشاطاته الإجتماعية . لو كانت العربية لعمت هذه اللغة جميع نشاطاته الإجتماعية . اللغة الأم هي اللغة القومية . واللغة القومية لا تتجزأ . لا تكون صالحة للاداب دون أن تكون صالحة للعلوم . لا تكون صالحة في الشارع دون أن تكون صالحة في التعليم . لا تكون صالحة في المرحلة الإبتدائية دون أن تكون صالحة في المرحلة الجامعية . يوم يبطل المجتمع أن يبتدىء من الفرد ويبطل الفرد أن ينتهي في المجتمع ... يوم لا يكون بين هذه النهاية وتلك البداية تلازم وتكافؤ وتزاوج ... يتهافت الكيانان معاً . فلماذا نريد من لبنان كوحدة شعب أن يعاكس اللبناني كفرد ؟ على لبنان أن يكون عربي اللسان . عليه أن يتبنى لغة أم واحدة شعباً وفرداً .

نقول ذلك لأن اللبنان الذي نقصد هو اللبنان المتفوق . اللبنان القائد الموّجه المعلم . ذاك هو الجميل في قول شيحا : إن حظ لبنان أن يعطي العالم العربي أكبر كتابه . وأكبر صحافييه . وأكبر شعرائه . قول جميل وحق أيضاً . إن رسالة لبنان موَّجهة إلى العالم العربي . الغرب ليس بحاجة إلى لبنان كي يستمد منه كتاباً وصحافيين وشعراء من الطراز الأول . إن لبنان تحت سماء الشرق . رسالته إذن هي للشرق .

ولذلك شروط يجب أن تتوافر ليكون لبنان من نمط العبقرية . من هذه الشروط عفاف اللسان كما يفرضه منطق الحياة . وتعدد اللغات انحراف عن منطق الحياة . من الجائز أن نكون قد اختزنا منذ القدم وفرة من اللغات الحية والميتة . لكننا لم نختزنها على قدم المساواة من حيث القيمة الأدائية . لم نختزن يوماً إلى جانب اللغة الأم ، وبمقدار اتقاننا إياها ، لغة أو لغات عالمية أخرى . إما هذه وإما تلك. أما الإثنان معاً فهذا من رابع المستحيلات . هنا خطأ شيحا .

إن تعدد الألسنة ، بمعنى لغة أم واحدة ، تعاونها لغات مساعدات لها ، أصبح كائناً في بلاد الناس جميعاً . وهو يزيد ، كل يوم ، بفضل انتشار العلم ، واحتكاك الشعوب بعضها ببعض . لقد تداخلت مصالح القوميات ، وترابطت العلاقات ، وتشابكت السياسات. أي بلد يستطيع ، الآن ، أن يكتفي بلغته القومية ؟ أي إنسان مثقف يجرؤ على القول بأن لغته الأم تحوش كل الآفاق العلمية ؟ أي جامعة في العالم تهمل آداب اللغات الأجنبية ؟ لكن الفرق عظيم جداً بين أن نلم باللغات الأجنبية كمساعدات وأن نضعها على قدم المساواة مع اللغة الأم من حيث القيمة في الأداء .

للغة الأم وزن أنطولوجي ، ليس لباقي اللغات ، في كيان الإنسان.

لهذه قيمة ثقافية إيجابية إذا لم تتحرش باللغة الأم . لأنها لن تدرك نفناف القلب . لن تلتصق به . لن تمتزج بحميمه . مجالها القشرة البرانية والمدى الخارجي فقط . أما اللباب النابض ، الذي يفجر من أغواره كنوز النفس ، فهو رهن لسان واحد . اللغة الأم . نكرر ما قلناه سابقاً بأن اللبناني كفرد لم يشذ عن هذه القاعدة الثابتة . الذي شذ عنها هو لبنان كوحدة شعب . هنا وقع التناقض . بين الكل والجزء . بين المجتمع والفرد . بين الوطن والموطن . ومتى دب مثل هذا التناقض بين الأمة والإنسان دبّ الخراب في الإثنين معاً .

ما كان تعدد اللغات (Le Plurilinguisme) مدعاة تفوق في يوم من الأيام . إن اللبنانيين المتفوقين في تاريخ لبنان هم الذين كتبوا باللغة العربية . هؤلاء ساهموا في كتابة تاريخه الكبير . هؤلاء كانوا كتاباً كباراً وصحافيين كباراً وشعراء كباراً . هؤلاء ذكرهم التاريخ . لقد وازنوا بين معنى الغرب ومبنى الشرق . بين فكر من عندهم ولغة من عندنا . أما اللبنانيون ، الذين كتبوا بغير العربية ، فأين تاريخهم الكبير ؟ أين خلودهم ؟ أين أثرهم في الأجيال الطالعة ؟ أين الآداب ، التي تذكرهم بفخر ، واعتزاز ؟ أين تحكمهم في الزمان الهروب ؟ ماتوا فماتت معهم الكلمة الا في تاريخ الأمة التي تبنوا لغتها الأم .

إذا أراد لبنان أن يلعب ثانيةً دور الأستاذ ، في العالم العربي ، وجب عليه أن يصون عفاف اللغة العربية . أن يصونه في كل ميادين حياته الإجتماعية . وفي كل مراحل نشاطه التربوي. ذلك ان العفاف لايجزأ . لا يكون هنا دون أن يكون هناك. فهومن صلب وحدة الشعب. من صميم روح الأمة . من خالص الشعور بالقومية . هذا العفاف في المبنى يولد عفافاً في المعنى . فلا يعود لبنان مجموعة فسيفسائية من

الثقافات . ثقافة لبنان لا تنفصل عن اللغة العربية . هي لبنانية المعنى عربية المبنى . انجراف لبنان في تيار اللغات الأجنبية ، كلغات أم له، يبعثر قواه الذهنية . يزيد في شعوره بالدونية . « إن كل من يتكلم لغة أجنبية ، وإن كان يتقنها جيداً ، يشعر بشيء من الإنزعاج ، عندما يخاطب بها أبناءها الأصليين[1] » . هذا الكلام ليس من قلمنا . قاله أحد علماء الإجتماع الذين زاروا لبنان . ومكثوا فيه طويـلاً . واختلطوا بأهله . وعلموا طلابه . وأمعنوا في النظر إلى أحوالـه . فكيف يريد شيحا اختراق ناموس الحياة ؟ وهل شعر اللبناني، المتأجنب لغةً ، بغير الدونية حيال الأجنبي ؟ شيء طبيعي . والشعور بالدونية ، من جهة اللغة ، يجر معه شعوراً بالدونية ، من جهة الفكر . والدونية حالة سلبية . والسلبي ، وإن زيد عليه سلبي آخر ، لن يعطي شعوراً بالإيجابية . وإذا أعطى فبإيجابية ذلك السلبي . وهو شعور سلبي أيضاً .

لقد مرّ زمن على لبنان كانت الناشئة فيه تفتخر بجهلها اللغة العربية. كانت تفتخر بتفوقها في الفرنسية والإنجليزية . وتتباهى بأنها لا تعرف شيئاً عن الآداب العربية . لهذا الإفتخار أسباب عديدة ، يرجع أكثرها إلى الأحوال السياسية ، التي غمرت لبنان مدة نصف قرن . لا شك عندنا أن افتخار اللبناني بتفوقه في اللغات الأجنبية هو من قبيل العجز في اللغة العربية . هذا اللبناني المتأجنب لساناً ، وفئته قليلة الحمد لله ، يظل في مرتبة وضيعة جداً ، بين أهل القلم بلغة الفرنسيين أو الإنجليز. إن تفوقه بالفرنسية أو الإنجليزية هو تفوقُ لبناني . لا تفوقُ فرنسي في فرنسا وإنجليزي في إنجلترا . أما الذين صفق لهم الغرب ، مـن

---

1) العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي، تأليف ستيوارت ضود، ص ٣٠٤ . ترجمة فريد نجار . الناشر دار الكتاب، ١٩٤٧ .

اللبنانيين المتأجنبين في الكلمة ، فمسألتهم تدعو إلى الإمعان . ولا نجد هنا أصح مما كتبه عنهم فليكس فارس . قال :

إنني أعرف من رفاق الشباب جبران خليل جبران ، والريحاني ، من العرب الذين كتبوا بالانكليزية . وأعرف شكري غانم ، وخير الله خير الله ، من الذين كتبوا بالفرنسية ، فأجادوا وصفق لهم الغرب ، والعالم الجديد . ولكن مثل هؤلاء العباقرة ، الذين قلما يجود بمثلهم الزمان ، لم يشتهروا بصفاء لغتهم ، وفصاحة تعبيرهم ، قدر اشتهارهم بروح من الشرق هبت بين سطورهم ، فأعجب بها العالمان . ماكان جبران والريحاني إلا رسولي الأدب الشرقي الصحيح ، كلا منهما على طريقته ، لدى أبناء المدنية الآلية الجبارة . وما اشتهر غانم إلا برواية عنترة ، كما أن خير الله لم يشتهر إلا برواية مجنون ليلى ، وبما عقد عن الشرق من الفصول (١)

أجل! لو رجعنا إلى أسلوب هؤلاء اللبنانيين، الذين كتبوا بغير العربية ، لرأيناه خالياً من عبقرية اللغة الإفرنسية أو الإنجليزية . خالياً من ذلك الشعور الحميم الراسخ في موطني تينك اللغتين . خالياً من ذلك السيال اللطيف الذي ينبع من أقلام فرنسية أو إنجليزية صافية . لا شك في أن لبنانيينا المتأجنبين لساناً كتبوا لغات الغرب بصيغ صحيحة صرفاً ونحواً . لكن هذا لا يكفي ليجعلهم يتربعون على دكة الخلود في الأدب عند الأغيار . غابت عنهم اللطافة القلمية التي لا يحصل عليها إلا الموطنون الأقحاح . الإنسان لا يكتب أفكاره بأصابعه فقط . ولا بيده . ولا بجسمه . ولا بروحه . الإنسان يكتب أفكاره بكل هذا . أكثر من ذلك . يكتب بتاريخه . يكتب بدعوة من أرض وطنه . بإيعاز من سمائه . بحثٍّ من أمته . فإذا كتب اللبناني باللغة الفرنسية جاءت فرنسيته فرنسية لبناني لا فرنسية افرنسي . وهكذا دب الفساد في اللطافة الأدبية . وأقفل عليه باب الأريحية المتفوقة .

---

١) رسالة المنبر إلى الشرق العربي، ص ٧٤ .

لقد حان لنا أن نضع النقاط على الحروف . حان لنا أن نزيل وهماً قابعاً في بواطننا . إن الإعتزاز ، الذي يوقظه فينا كوننا نتكلم بلغات كثيرة ، هو اعتزاز خاطىء . هو اغترار فاسد . مثلنا مثل من فقد ظله فمشى بظل سواه .

الخاتمة

قلنا ، بادىء بدء ، إن تجربة النقل ، إلى العربية ، هي التي أماطت الحجاب ، أمامنا ، عن خطورة اللغة . هي التي أرتنا الكلمة أفعولاً ضخماً في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً . وهي التي قادت خطانا ، من ثم ، إلى دائرة أوسع من فعل الكتابة ، في مفهومه الضيق . قادتنا إلى رحابة التساؤل ، الأنطولوجي ، عن مدى الفكر ذاته ، مرتبطاً من داخل عينه باللغة المعبّرة . لم يخطر ببالنا ، أول بدء ، سوى الفعل الترجمي العارِي ، الذي يرمي فقط إلى صب الخاطرة البرغسونية ، في مسبك عربي . ثم اتسعت الحلقة حتى انتهت إلى أقصى الماورائيات. حينئذ أدركنا أن اللغة هي من خواص الفكر بالذات .

لكننا لم نسلك دروب الجوهريين ، فقط ، الذين يرققون سماكة الوجود ، فيشف كثيراً ، ويتناهى ، وأخيراً يمحى . لقد كنا من ذوي الوجودية ، أيضاً ، القائلة بوجوب وجود الجوهر . والوجود لا يكون إلا في حيّز الخاص . إذ لا جوهر إلا وهو هابط نحو الوجود. ولا وجود إلا وهو صاعد نحو الجوهر . معناه أن الجوهر الذي تقوم

عليه الحقيقة ، والذي هو ديدن وعينا ، لا يُدرَك بقفزنا من فوق الوجود . الجوهر هو قاع الوجود . التحليق ، إذن ، بالتسامي إلى فوق ، لا يكون إلا بالغياصة في الأعاميق . لا مثالية في غير الواقعية . يعني لا إنسانية في غير القومية . وهكذا لا فكرَ في غير اللسان. الإنبساط الفالش هو في القبض الكامش . تلك هي الجوهرية الملطّفة . وتلك هي الوجودية المعتَدلــة .

الفكر ، وإنْ تذهّنَ ، هو دائماً وأبداً في مجامر طينية . والعلماء لم يعثروا بعد على فكر مغسول . لا كيان لهذا الفكر إلا في اللسان . في هذا اللسان ، أو ذاك ، أو ذلك . خطأ ، والحالة ذه ، أن نعتبر الفكرَ من الباطن ، واللغةَ من الظاهر . كل باطن هو ظاهر مكموش . وكل ظاهر هو باطن مفلوش . تلك هي أنطولوجية اللسان . ومن هنا المغالطات ، التي ارتكبت ، والتي قامت على جهل منا لواحدية هذين الأقنومين ... الوجدان واللغة . لقد جرّت تلك المغالطات انحرافات كثيرةً في شتى جهات الفكر الفلسفي . وأدّت إلى نتائج قومية ، وتربوية ، لا تتفق إطلاقاً مع ذات الإنسان .

يبقى أننا لم نقف عند هذا الحد . لقد تخطيناه إلى أبعد . تخطيناه إلى التحدث عن اللسان العربي . إن سمتنا البحثي ، الجامع بين جوهر العام ووجود الخاص ، هو الذي حدانا على أن نضرب في شاسعات هذا اللسان . أجل ! لقد كان لزاماً علينا ، بالنتيجة ، أن نتساءل عنه . لزاماً لأننا لم نؤمن بجوهرية الفكر ، وحده ، دون وجوديـة اللسان . كل بحث في علاقة الوجدان باللغة ، أو العكس ، هو بحث في علاقة الفكر بأحد الألسنة الموجودة .

لم يعد لنا بد من الحوم على لساننا ، الذي خصّته الطبيعة بمـا خصّت غيره ، فإذا هو في مصاف أرقى اللغات . كل لغة هي ،

بالقوّة ، من أرقى اللغات . من أبقاها على الدهر إذا أراد شعبها أن تسمو . حينئذ تشبُّ ناهضة من الأعماق . نقول : ليس بين اللغات فوارق عمودية ، بالأساس ، تجعل هذه دون تلك . لا أفضلية من حيث العين والذات . الفوارق فيما بينها أفقية . دونية البعض هي من قبيل العَرَض . تعود إلى ظروف طارئة عابرة . إذا زالت هذه ، أو اشتدت مفاصل اللغة ، ارتفع اللسان إلى القمة ، وصار من بين المهذبات . لا أوابد ، بين اللغات ، تمنح هذه نعمة من فوق ، وتحرم تلك عافية السمو . القضية هي بنت التطور ، والنشوء ، والإرتقاء ، لمن أراد من الأفراد . ولمن أراد من الشعوب . إن العجز ، الذي منيت به العربية ، ليس من صلبها . الظروف السياسية هي التي ابتغت هذا العجز . هي التي كانت سبباً للإفتراء عليها . هي التي صورتها لنا على غير نسيجها . ولا عجب أن ينال المستعمِر من لغة المستعمَر. إن ذلك يضعف الكلمة عند المحكوم . ومتى ضعف المبنى ، ضعف المعنى ، فانهارت الشخصية . وقد كان واجباً على لساننا أن يناخ للجو العام . كان عليه أن يخضع للمصير ذاته ، كباقي مقومات الأمة ، فخضع . لكن المجاري تبدلت . ما كان خائراً أصبح من القوة بمكان خطير . السياسة تشتد ، والإقتصاد يزدهر ، والإجتماع يقوى ، والتربية تنتصر ، والأدب ينتفض ، والعلم ينتشر . فكان لا بـد للعربية من أن تسير في الركب الحادي . وها هي راكبة حادية . إنها في طريقها ، مرة أخرى ، نحو القمة البالغة .

أهو دفاع عن اللغة العربية ؟ أجل ! وأكثر من دفاع عن لغة . إنه تركيز لبنان في تاريخه الواجب أن يكون . في مجاريه السليمة .إنه ضبط قوانا في ثلم واحد من أثلام الكلمة . لبنان لم يصن عفاف اللغة العربية تجاه حضارة الغرب . لقد كتبها ، فعلاً ، دون أن يحترمها ،

فكراً . يعني أنها لم تدخل إلى صلب قراره لتصير قاعدة من قواعد استقلاله المادي والمعنوي . ضاعت هيبته ، وكان أنه لم يعد المعلم ، والإمام ، في توجيه غيره من بلاد العرب ، كما سبق له أن تمتع بـه زمناً يسيراً . لقد ذهبت حرارته في الإبداع ، وسكن لهبه في النتاج الأبقى، وتنازل بذلك عن قسم وافر من أستاذيته . هذا واقع حال ، يجب أن لا نزيح لفتةً عن إعلانه، بجرأة وأمانة، على رؤوس الأشهاد، وإلا جنحنا عن جادة الصواب ، وكان في حكمنا زيغ وانحراف.

الحضارة الغربية ؟ من ينكر فضلها ؟ من يجهل فعلها الثاقب ؟ من يستطيع أن يشيح بوجهه عنها ؟ لقد نقلت العلوم من الكيف إلى الكم . وقعّدت المجتمع على أسس الإيجاب فجعلت الدين علاقة خاصة بين الله والإنسان . تلك الحضارة ، هـي التي أنجبت ديكـارت ، وسبينوزا ، وكانت ، وهيجل ، وماركس ، وبرغسون . هي التي علمنت الله فأدركنا قوة الأرض . وألهنت العلم فأدركنا صحة السماء . تلك الحضارة ، هي التي نضجت ، خلال عصور وعصور، حتى عمت الغرب ، ثم أفاضت منه على حواشيه ، فإذا بها تنساب في المعمورة كلها . لا حضارة بعد اليوم بدون تلك الحضارة . بدون ارتكاز على بديهياتها . لقد واجهها لبنان أسوة بغيره من بلاد هذه الرقعة في الشرق . واجه حضارة عملاقة من الغرب ، برهنت عن إمامتها ، وفرضتها مدة ثلاثة قرون متوالية . لا غرو أن يقف لبنان حيالها موقف الآخذ ، فالعالم كله ينسج على منوالها ، في أوقاتنـا الحاضرة . لا نستطيع بعد اليوم أن نطوي كشحنا عنها إذا ما أردنا أن نساير القافلة الحادية . هذا هو الغرب ، الذي نقصد ، والذي يجب أن نأخذ عنه .

لكن ...

لقد وقع انحراف في هذا الأخذ . لم يدرك لبنان أن اتصاله بحضارة الغرب يجب أن يكون من حرف العربية ليتيسر له اقتطاف ثمر تلك الحضارة يانعاً مفيداً فيكون فيها من المبدعين . إن حضارة الغرب لا تجدي نفعاً ، إذا كانت لا تتساوق مع ضوابطنا التاريخية ، التي كتب علينا أن نكونها أصلاً . واللغة العربية هي من جملة ضوابطنا التاريخية ، التي ينبغي لنا أن نقدسها حتى نزاول القيم العالية ، بصدق وأمانة . بدون هذه اللغة لن يكون لنا عمارات فكرية شاهقة نتحدى بهـا الزمان الهروب . لقد كتب عليها وحدها أن تعبّر عن هسهساتنـا الوجدانية . وحدها التي ستجيز لنا أن نخلق القبب المتساوية . أن نمتد في الآتي . إلا أننا هوّنا كثيراً مداها الفاعل فأخذنا غيرها متسللا إلى فلك العقل الصافي .

الذين يهزأون بما للتاريخ من سلطة على المرء ، وينكرون هـذه السلطة ، يجهلون أن الإنسان ذاته تاريخ . أن جهله لتاريخه تأريخ لجهله . لذا كان الحصول على القيم السامية ، الكائنة في الحضارة الغربية ، يوجب علينا أن نحتفظ بروابطنا التاريخية . نحن مسدودون إلى غربهم من شرقنا ، وإلا استعصت علينا غربيتهم ، وخرجنا على شرقيتنا . المشكلة ليست مشكلة تقليد واتباع بل مشكلة خلق وإبداع . فالذي يجب أن يكون ليس تقليد الغرب وإنما تحقيق روحه فينا . وهذا التحقيق يفرض علينا أن نكبر شأن تاريخنا ، لأن الإنسان لا يكون أباً للتاريخ ، إذا رفض أن يكون ابناً له . ولا نحدد التاريخ هنا بالذي كان فلم يعد . ليس لهذا التاريخ قدسية عندنا . والذي يتمسك به لا يكون غير مقلد . التاريخ المعني ، هنا ، هو ما بقي ، من الماضي ، لخدمة الحاضر . هو معنى الآباء والأجداد لا الآباء والأجداد ذواتهم . هذا التاريخ هو العلم بمستلزمات الحاضر أولاً . لولا هذا التاريخ

لهلك الحاضر ولم يبقَ من الماضي شيء خالد .

لسنا متشائمين ، من حيث مستقبل لبنان ، في ميدان العربية الكريمة. نحن نؤمن بعبقرية اللبناني . وقد بدأ يتزحزح عن ماض قريب ،طويت صفحته ، بمقتضى ناموس التطور . فلا الفكر كان فكرنا ولا اللغة كانت لغتنا . لهذا كنا في عالم الكم عدداً من الأعداد . لكننا لم نكن ، في عالم الكيف ، شيئاً يذكره التاريخ . أما الذي يتروى الأمور بعين ثاقبة ، ويبحث عن سبب وهدف لكل حالة ، سلبية كانت أم إيجابية ، يثبت عنده ثبوت اليقين ، الصارم ، أن لبنان يتحفز . ما نسميه فتوراً ، إن هو إلا استجمام ، ولملمة قوى ، وتموين ، في سبيل المعركة المنتظرة ، جرياً على سنة التقدم والإرتقاء ، التي هي مد وجزر في اطراد موصول .

إن هذا البلد ينطوي على الغام ستتفجر . من يراقب نشاط أبنائه ، يتلمس الفكر الذي يتأجج في جنباتهم ، ويدرك بوضوح مدى الفاعليات الكامنة في أعماقهم . ولا عجب أن يحاول لبنان النهوض من عثاره مرة أخرى . فقد أعطى الدليل مثنى وثلاث على أنه الإبن الشاطر في ميادين العربية . وهو لا يعجز عن أن يؤديها رباع إذا أراد أن يعيد مجد العربية السالف . ويقيننا أن يومه قد أتى . يوماً يرجع له مدرجه السني ، في عكاظ الكلمة المجنحة ، ليسمع التاريخ نبراته العالية . لقد فقىء الدمل وكمت الأفواه . لبنان في تماثل من مرض خبيث .

ملحق
في الدافع الى تأليف الكتاب

تجارب ثلاث توالت ، في حياتي ، حدتني على الاعتقاد بغائية اللسان . أعني بفاعلية اللغة الأم في تكوين شخصية الانسان فرداً ومجتمعاً . لقد وضح لي أنه لا فكر خلاقاً بمعزل عن ديباجة شريفة . لا حرية صادقة لشعب يزدري بلغته القومية . هذا ما حفرته التجارب الثلاث ، في سواتر قلبي ، واقامته حقائق ، في قرارة نفسي .

أما التجربة الأولى ، والبادئة ، فإنها تعود إلى اليوم ، الذي كنت فيه ناعم الأظفار ، نديّ الجبين ، رخص القوام . كنت وليداً ، بعد ، أحصِّل العلم . مثَلي ، يومذاك ، مثَل الورق الأبيض النقي ، يخط عليه القدر ما يشاء ، وكيف يشاء . وكان هذا القدر ذاته قد كتب ، فوق وريقتي إذ ذاك ، بضعة أسطر من نور ، هي تنزيل حكيم في سبائك الفؤاد . لقد نُقش حبُّ العربية في لوحة صدري . رحم الله والدي ، وأطال بعمر والدتي ، اللذين أقاما لها معبداً ، في حنايا نفسي . لقد ضرباني ، وأنا صغير بعد ، على قوالبها السليمة . بين هذين الوالدين ، العربيين لساناً ، ترعرعت وكبرت .

كثيرون هم الذين يهوِّنون قيمة الأسطر الأولى التي يحبرها

القدر في أعماق الانسان منذ الطفولة المبكرة . إنها الثلم الذي توضع فيه بذورُ المستقبل . بذورٌ تكون رسمَه البادىء فتقرر بعض ما سيكونه المرء . هي الفاتحة، التي تحمل في سطورها ، بعض أفعولات الخاتمة . إنها مشروع مستقبل ، ليست الأيام التالية له إلا مجال الزمن الواجب ، لتتحقق فيه البذور الموضوعة . أجل ! تتكيف الطفولة مثل القصب الطري في النسيم . لكن الأسطر ، التي توضع فيها أول بدء ، لا يهون حكها من ثم ، بل يستحيل . تلك البذور، متى ركزت في ثلم الطفولة المبكرة ، يعسر قلعها ، إذ تشغل المكان الأول . وللأولية أولوية لا تُزتَجر . . . كما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبي فارغاً فتمكنا

أو: نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأول منزل

هكذا وُضعَ الأساسُ ، في حياتي ، منذ البداية . لقد رُفعت مداميكي ، أول الأمر ، على حب اللغة العربية . على إجلالها وتقديسها . على مزاولتها قبل سواها . على إعطائها حق الصدارة في أبهاء نفسي . لقد أُوقِفتْ عليّ . أوقفها والداي . أوقفها محيطي . أوقفتها أمتي .

ثم كان من واجبي ، بعد ذلك ، أن أسير في ركب جيلي . أن أتعلم . فدخلتُ ، أو أُدخلتُ ، إحدى المدارس الأجنبية الكبيرة ، حيث تلقنت المعارف، حتى آخر المرحلة الثانوية . لم أذكر في أي

الصفوف بدأت الحكايةُ . أو التجربةُ الأولى . لكنها بدأت في سواتر الباطن لا واعية . وتضخمت مع الأيام . وتنقحت مع الأعوام . وتجسمت واعيةً ، ناطقةً ، منتهى الأمر ، في الذي بين أيدينا « فلسفة اللغة » .

في ذلك الحين — وأنا أجتاز التعليم الابتدائي — كان على الطالب الوليد أن يلسن ، وقت الدرس واللعب ، بغير العربية . كان عليه أن يفجّر ألغام قلبه بلغة لم تصبه منذ المهد . أي بلغة أجنبية لا تدفق عفواً من لسانه . كان عليه أن ينمو ، لغةً ، في غير الثلم الذي رسمه له القدر ، بالسليقة المرتاحة . كان عليه أن يُؤَجنِّبَ ألفاظه . وفي هذا بعض الانحراف بل كل الانحراف عن ناموس الحياة . بعض الخيانة بل كل الخيانة . بعض الجريمة بل كل الجريمة . ذلك لأن الطفولة عفوية سمحاء ، قلباً وقالباً . روحاً وجسماً . فكراً ولساناً . وهي تميل إلى الدفق ، في الخارج ، بعفوية سمحاء أيضاً . فمن الخطأ والحالة هذه أن نضعها في غير مجرى السليقة . في غير مساحب العفوية . إنها لم تخشوشن ، بعد ، كي تناخ لفعل الارادة .لفعل العقل والتجريد . لاصطناع الوعي المحاسِب . للكدّ والشدّ . لهي كالمادة الخام .

من أخطائنا التربوية اعتقادنا بسلبية الوليد . نظن أن الوليد مغارة مقفرة . أو بيداء فارغة . يستطيع المعلم أن يضع فيه مايشاء وكيف يشاء . مثل هذا الاعتقاد انحراف تام عن نفسية الوليد . التربية لا تبدأ في المدرسة ، إنما تبدأ في البيت . تنطلق من البيت . ذلك لأن الأم بالنسبة لوليدها تمثل المجتمع الانساني كله . بل هي ذاك المجتمع الانساني في أقوى مظاهره . فهي التي تلقي في نفسه آثار السالفين . وترسخ في قلبه وفكره أنماطاً ، من الوجدان ، تعود إلى أرضه

وسمائه وعادات قومه . في أحضانها بل في أحشائها توضع الخطوط الرئيسية لشخصية الانسان . فإذا أتى عمل المدرسة منافياً لعمل البيت كان هذا تخريباً لقومية الوليد . إن كل فعلٍ معاكسٍ لروح البيت ، يثير ردة فعل ، في قلب الوليد ، تكمن لاواعية إلى اليوم الذي يشرق فيه الإدراك ، عالياً ، فتتفجر صاخبةً .

الحياة لا يغلبها نوم . إنها حافظة العين . الصغائر لا تضيع فيها . والكبائر لا تطغي وحدها . إن كل ما يمر ، في نفسية الوليد اللاواعية ، يترك بعض الأثر . من هذه الرواسب ما يعود ثانيةً إلى الوجود إذا كُبِتَ كردات فعل عنيفة . ذلك ما يقوله تحليل النفس الذي لم يُبق تلك الحقائق في الظلام . لقد كشَف النقابَ عنها صراحةً . وأرانا ، كما أرانا علم النفس التربوي ، أن كل كبت في نفس الوليد ظاهر ، بعد حين ، بشكل واضح . الكبت احتقان . ولابد للاحتقان من يوم يتفجر فيه كالمارد . لذا وجب على المدرسة أن تكون امتداداً لما يسنه البيت . يعني على الوليد أن ينساب طبيعياً في قنوات عائلته . ما يعايشه بين أهله ، بدون أن يعمل فيه العقل المجادل ، ينبغي له أن يعايشه في المدرسة . فإذا كانت لغته القومية هي اللسان العربي بين أهله انبغى للعربية أن تظل في مراحل التعليم الأولى لسانَ كل تعبير عن نشاطاته الجسمية والقلبية والفكرية . القطيعة غير واردة ، بينهما ، في التربية الحديثة . والخطأ كله في أن يأتي مناخ المدرسة منافياً لمناخ روح العائلة . ويل لشعب ، تربيةُ المدرسة فيه تغرّب ، وتربيةُ البيت فيه تشرّق . ويل له إذا أقام العداء بينهما . إنه كالزورق الرجراج فويق يمٍّ صاخب . لهذا وجب التحالف ، بين البيت والمدرسة ، في تربية صحيحة . المدرسة بيت ثان ، والبيت مدرسة أولى .

قلت انني دخلت إحدى المدارس الأجنبية الكبرى، حيث كان على الوليد أن يلسن ، وقت العلم واللعب ، بغير اللسان العربي . لقد أنخنا كلنا ، يومئذ ، لذلك المنطيق . ولتلك المشيئة . الظاهرة ، بحد ذاتها ، جدّ بسيطة . وقد دعمها شيئان : انتداب سياسي ، ونظرة تربوية . أما السياسة فقد كنا فيها من المغلوبين على أمرهم . والمغلوب يقتاس بالغالب ، الذي يفرض ما يشاء ، لأنه صاحب القوة . صاحب الكلمة الفصل . هذا هو منطيق السياسة .

قد يكون هذا المنطيق على حق . فما على المغلوب إلا أن يتعافى لينتصر من جديد . هكذا عُجِن الانسان . وجُبِل . وخُبِز . السياسة لا ترحم . إذن لا مجالَ فيها لتلك القيم . حجة الغالب هي دائماً أفضل من حجة المغلوب .

أما النظرة التّربوية فهي تقوم على أن العلم في الصغر كالنقش في الحجر . وهذا ساطع . إذ أن كل ما يتعلمه الانسان ، وليداً ، يسهل اقتباله ، ويصعب من ثمَّ طرده . ولما كان الغالب يتصدى لفكر المغلوب ، ولسانه ، كما يتصدى لجسمه — ويريد الاستبداد بفكره ولسانه — فقد سخر الانتدابُ التّربيةَ لغاياته السياسية . وهنا وقع الانحراف المبين .

أن يكون العلم في الصغر كالنقش في الحجر فهذا حق صراح . لكن النقش لا يبدأ في المدرسة . النقش الصامد ، بل الأصمد ، هو من عطايا البيت . لقد جهلت السياسة ، أو تجاهلت ، أن النقش الذي لا يمكن حكه ، إطلاقاً ، هو ذاك الحاصل من لبن الأم . البادىء في المهد . وقد يبدأ في الأحشاء الوالدة .

هكذا فرضت علينا السياسةُ ، يومذاك ، مفاهيمَ تربوية — من بينها اللسْن بغير العربية — لا تتفق أصلاً مع أسانيد النفس البشرية . وقد

أنخنا كلنا لتلك المفاهيم . فأرغمنا على الخيانة باعتبار أنها فضيلة . وعلى الجهل باعتبار أنه معرفة . وعلى الباطل باعتبار أنه حق .

ونحن عن كل ذلك غافلون . أو متغافلون . أما الوليد ، الذي يعصي منطيق السياسة ، فقد كان العقاب نصيبه . والعقاب على ضروب: منه الحرمان عن الطعام . ومنه الإسقاط في الامتحان . ومنه الحجْر عن اللعب . ومنه التشهير أمام الأتراب . وهي كلها أساليب تذليلية تخلق في النفس عقد التصاغر والدونية . وقد كان ثمة شارة خشبية ، أي قطعة من خشب Signal تضبط ، في آخر وقت اللعب ، مع الطالب الذي يلسن بغير الفرنسية . كانت هذه الشارة كالطاعون أو البرص . ويل للطالب الذي لا يتمكن من أن ينفضها عنه إذا استقرت بين يديه. من أن يعطيها سواه ممن يخطئون ، فيلسنون بالعربية ، أو ممن يساقون خبثاً إلى اللسن بالعربية . عليه إذن إما أن يضبط لسانه عن اللغة القومية ، وفي ذلك إيقاف للسليقة ، وإما أن يتخلص من الشارة ، فيتخابث على غيره ، ويسوقه سوقاً لاواعياً إلى اللسن بالعربية .

إلى هنا وكل شيء عادي في الحكاية . ثم تبدأ المأساة في قلب ذلك الوليد ، الذي كنتُه ، والذي أقدّم اليوم يميط اللثام عن الخيانة ، في كتاب « فلسفة اللغة » .

لقد كنت من العامرين جسماً. من الناجحين كثيراً في مذاهب الرياضة . لذا كنت طالب لعب قدر ما كنت طالب علم . كنت فوارة شوق إلى الترويح عن العضلات . كم أحببت سياسة الجسم ! لكنني لم أكن من المجلين في لسان الأغيار . لقد رُكِزْتُ على العربية . هذا كان عيبي ، يومذاك ، في نظر الانتداب .

صوهر ، وزُوِّج ، في بيت أبي ، منذ البدء ، بيني وبين العربية . وتنازعني أمران . أحدهما إيجابي ، وثانيهما سلبي .

الايجابي هو ميل جارف إلى اللعب انسياقاً مع نخوة الفتوة في الجسم . السلبي هو خوف من الشارة الخشبية التي كانت تهددني بالعقاب ، الأشد . لا أذكر أنني أطلقت العنان، مرةً واحدةً ، لفطرة البدن تتفجر بارتياح . لقد كان طاعون الشارة الخشبية يلاحقني . وبرصها يرعبني . أما النتيجة فكانت أنني أضربت عن اللعب يوم كنت بمسيس الحاجة إلى اللعب . فاعتزلت ممارحه . وحرمت خيراته الجسمية والنفسية والفكرية . ولو وقف الاعتزال عند حد الخارج ، لهان الأمر ، وتضاءلت المأساة ، بل امحت ، ولم يعد ثمة كبت ذو خطورة . لكن سوس الاعتزال نخر في أقبية النفس ذاتها . إن كل حرمان ينقلب إلى كبت سلبي هدّام .

نشأ عن ذلك انطواء على ذاتي فعقدة تصاغر إزاء الذين يلسنون بغير العربية من أجانب ومتأجنبين . لم أستطع أن أجمع بين لسانين جمعاً مليئاً بالعفوية ذاتها . قلت إذن أنا من فاقدي الأهليه . وأخذت المأساة تلعب دورها في قلبي . سيف العربية مسلط ، فوق رأسي ، في بيت أبي . وسيف غيرها مسلط ، فوق رأسي ، في المدرسة . مستحيلان يتجاذبان وليداً ، يريد جسمه أن يزاول منطق عضلاته ، فلا يستطيع ذلك ، لأن الجسم غير منفصل عن النفس . وتريد النفس أن تمتد في بهوها ، فلا تستطيع ذلك ، لأنها فقدت عفو لسانها . قد لا نرى في هذا كبير شأن إذا نظرنا اليه نظرة سطحيةً . لكنه يعاكس، في الواقع ، ما تشرّعه التربية الحديثة من أن حياة الوليد المدرسية ، يجب أن تكون امتداداً لحياته البيتية . هذا الطلاق ، بين لسان البيت ولسان المدرسة ، أوجد فيّ عقدة ، راحت تتأكلني وتعثّرني في المسير . لماذا لا ألسن لسان غيري كما ألسن لسان قومي ؟ إنها دونية متأصلة في شروشي . وتملّك الوليدَ ، الذي

كنتُه يومذاك ، خوفٌ من الأجنبي والمتأجنبين . خوفٌ سببه عجز ، هو ذاته تقديس لهم ، وإعجاب ، وتخريب لذاتي . لقد كنت أجهل ، يومذاك ، فلسفة اللغة . كنت أجهل أن للقلب الواحد لساناً واحداً لا يعبِّر في غيره التعبير المطلق عن مضامين النفس .

وراحت السنون تتوالى ، وأنا أتدرج في العلوم ، من أدناها إلى أعلاها ، ولكن بغير يسر . وعلة الصعوبة عندي ليس عجزاً أصيلاً ، وإنما هو فرض العلوم على ذهني بغير اللسان العربي . نحن لا ندرك العراقيل ، التي يصطدم بها الطالب ، عندما يحصل بغير لسانه . إن العقبة تتضاعف والمجهود يزيد جداً . هناك عقبة فهم المادة وعقبة فهم اللغة . عقبتان يصطدم بهما ذهن الطالب الوليد . في حين أن التحصيل يجب أن يكون عفواً من جهة اللسان لكي لا يتعثر الطالب ، فطرياً ، بالتعبير عن بديهيات الفكر البشري . وإني أجرؤ على القول ، ههنا ، ان معظم طلابنا الراسبين في الامتحانات النهائية ، هم من الذين لا يجيدون اللغة الأجنبية . سواتر الوجدان لا تظهر مليئة إلا في عفوية اللسان القومي . وشخصية الانسان لا تكتمل إلا في وحدة المبنى والمعنى . وحدة متراصة الأجزاء لا يصيبها الفكر إلا في عفاف اللغة ــ الأم . فيها ، وبها تحل عقدة اللسان ، ويندفع مجرى الحياة بزخم ، وعنف ، وجدة . فيها وبها يحدث الجري السريع .

لقد كانت العربية تنتصر في كل حلبة من تحصيلي . ولا عجب . إن الطبع قوّام على التطبع .

أنهيت مراحل التعليم دون أن أعلم شيئاً من فلسفة اللغة . لكنني عشت تجربة اللغة ــ الأم ، وأنا وليد ، دون أن أعي حقيقة تلك

التجربة . عشتها بلا قصد . ثم شعرت أن الذوق الأدبي آخذ بالمدّ في قلمي . فالكلمة تقلق عروقي . والبيان يتملقني . والبلاغة تروقني . كان الأدب يتبرعم ، في قرارة نفسي ، ويتزنبق . منذ ذلك الحين شعرت بعضّة الحرف . وكان هذا يزيد في كماشة العقدة . يزيد في الدونية . في المأساة . ولا أكتم القول بأن تلك الدونية ، التي أصابتني في اللسان — من جهة الأجانب والمتأجنبين — أصابني أيضاً في شعوري القومي ، فتدنت قيمتي في عين عيني ، وحكمت على الغير أنه من طينة أبهى ، وأسنى ، وأنبل . لا دهش والحالة هذه أن يتناول الغالبُ المغلوبَ من لسانه . من ذلّ في لغته ذلّ جبراً في قوميته . ومـــن ذلّ في قوميته ذلّ أيضاً في إنسانيته .

ودفعني حب الاستزادة من حياض المعرفة . فارتميت في شاسعات الفلسفة . الحق ان الفلسفة يمّ عجاج . طوبى لمن يركب أمواجه ، وويل له ، في آن واحد . وتحمست لبرغسون ، وآمنت بفحوى أقواله كلها ، ورغبت في أن أنقله إلى لساني . فكانت التجربة الثانية التي ساقتني إلى كشف الحجاب عن جوهر اللغة — الأم . وإلى تدوينه في كتاب «فلسفة اللغة» . هنا لا بد لي من الاعتراف أن تمسكي ببرغسون يعود إلى أنه صائغ حرف من الطراز الذي لا يأتي غير مرة واحدةٍ في كل جيل . إنه الفيلسوف ، الذي عرف كيف يرصع الكلمات ويجوهر الألفاظ . وكنت إزاءه ذا حس ناعم طري . أستملح ديباجته الحلوة ، وأتذوق طعم تورياته ، وأستأنس برمزيته .

ثم كانت خاطرة نقله إلى اللغة العربية . أجل ! لِمَ لا يكون هذا الفيلسوف المعلم في لساننا القومي كما هو في لسانه القومي ؟ لِمَ لايكون تفكيره الممتازُ خميرةً صالحةً في أمتي بلغة أمتي ؟ أيظل فقط في متناول

المتفرنسين ، منا ، الذين شدخوا رأسَ العربية احتقاراً ؟

وكانت محاولة سكبه في لغة الضاد . هنا عايشت ، بل عشت التجربة الثانية ، وبصورة لا واعية أيضاً . لقد بان لي أن المعنى ملتصق بالمبنى التصاق الريح بهبوبه . أكثر من ذلك . بان لي أن الفصل ، بين المعنى والمبنى ، أسطورة لا حقيقة . وكم سلمنا بهذه الأسطورة . وكتبنا عنها . وعلمناها للطلاب الناشئين . كم من مرة قيل لنا بألا نطارد الألفاظ لأن المهم هو أن تكون المعاني صائبة .

أما الواقع الصراح فهو أن المعنى غير موجود بمعزل عن المبنى . كلما ارتفع الانسان في مجرة الفكر ، أحسّ بالوجد إلى الدواة ،وأيقن أن الديباجة هي ذاتها معنى . لقد كان فعلهم شنيعاً ، أولئك الذين هونوا لنا من خطر المبنى ، في سبيل تذليل شأن اللغة . بهاء الفكرة الناصعة هو في وحدة المعنى والمبنى . معنىً مركوز في مبنىً جميل أو مبنىً يضوع منه معنىً جميل . أقول هذا لأننا عاجزون عن الفصل بجلاء بين المعنى والمبنى . أين يبدأ الأول وينتهي الثاني ؟ أللمعنى جمال معزول عن المبنى ؟ أللمبنى جمال معزول عن المعنى ؟ تلك أسئلة لا يجاب عنها إطلاقاً .

طرحتها على نفسي وأنا أنقل برغسون إلى اللغة العربية . لقد كان من الصعب عليّ ، بل من المستحيل — وأنا أترجم — أن أحافظ على جمالية الأسلوب البرغسوني . للألفاظ ، عند هذا الفيلسوف ، سحر عجيب . سحر كأنه من طراوة الربيع وبوح النسيم . ألفاظه مرايا غريبة كالسراب . قوة جذبها أن لا تقتربَ منها كثيراً . تحسُّ بنفنافها ، عند اللمس ، كأنها من وراء الغيم . كل حرف منها أرغن كبير . كل مقطع بَشْرَفٌ مؤنس . كل جملة جوقة علوية .

ويأتي عمل الترجمة فينقطع السحر . لماذا ؟ لأن جمال المعنى فقد مبناه . تفرفط فانهار . الترجمة تحجيرُ سائلٍ . وتكسيرُ وحدة . وتقبيحُ سناءٍ . وتعتيمُ بهاءٍ . الترجمة ذبحُ جنينٍ . هي لا تسطو ، ولا تُقنع ، ولا تُغني ، ولا تُقلق ، ولا تَعض . ما خلدت الترجمةُ عبقرياً ونقلته من جذور أمة إلى جذور أمة . هي كالنافذة ، التي يطل منها الإنسان على الطبيعة الساحرة ، ولكنها ليست الطبيعة الساحرة عينها .

إن الذي أبقى شكسبير للأمة الإنكليزية ، والمعري للأمة العربية ، ودانتي للأمة الإيطالية ، وغوته للأمة الألمانية ، كون كل واحد منهم كتب في لسانه القومي . هم عالميون معنىً وقوميون مبنىً . هذان الطرفان لا ينفصلان . الأول أول بفضل الثاني . والثاني ثان بفضل الأول . إنسانيتهم إذن ليست بمعزل عن قوميتهم . الترجمة لن تجعل من شكسبير الإنكليز شكسبيراً للعرب . لن تنقله من الجزيرة الإنكليزية ، إلى الجزيرة العربية ، ليصبح بالترجمة من صلب اللغة العربية ، بحيث يتربع في أدبنا كابن أبي ربيعة ، أو المتنبي .

الترجمة عاجزة عن مثل هذا الافعول . سيبقى شكسبير رابضاً ، في جزيرته ، يمتد خلوده من هناك إلى هنا . شرشه في بلادهم . أصله تحت سمائهم . أجل ! إنه في كل مكان معنىً . لكنه في مكان واحد مبنىً . إن الكُلْمَكانية ليست تحقيراً للمكانية . وإنما انطلاق من مكان واحد ، وانفلاش في كل مكان ، دون قطع الصلة بالمكان البادىء . أجل ! إن شكسبير حق شرعي للإنسانية جمعاء . لكن إنسانيته المعنوية تظل مرتبطة بخاص مبناه . بلغته . الإنسانية لا تتنافى مع القومية . إذ لا إنسانية بدون قومية . كما أنه لا سماء بدون أرض . ولا مطلق بدون نسبي .

لذا اعتبرت الترجمة فاشلة . لقد عانيت أهوالاً كثيرةً وانا أنقل برغسون إلى اللغة العربية . برغسون الأديب لا يترجَم . لن يترجَم . إن كل محاولة ، في سبيل نقل جمال أدائي من لغة إلى لغة ، هي محاولة خاسرة . أقول هذا ، وأشدد عليه ، وأكرره . الترجمة خيانة للأصل العفيف . وما على الإنسان ، الذي يريد أن يتذوق أدبياً عبقرياً ، فذاً ، إلا أن يقرأه في نبعه الصافي . في لسانه القومي. إن ذلك الإطلال على الغيب ، عند شكسبير ، يُقفَل في النقل . ذلك اللهب المحرق ، في ألفاظه ، ينطفىء . الترجمة تحطيم وتحطيب. ترميد وتكليس . تبريد وتجفيف . لا شك أنها ناجحة في التعبير ، الذي لا يدرك — من الوجدان البشري — غير اطره الخارجية. القشور تُترجَم. لكن الأعماق تتفلت في الترجمة كوهج السراب . أو كالماء السائح من فرج الأصابع . الترجمة لا تغمر الفيض الأول . لا تحوشه . ولا تحيط به إحاطة كلية .

غير قاصد بهذا القول إلغاء الترجمة من حياة الأفراد والشعوب. أقول إنها وسيلة لا غاية . بذلك أُرِي شللها في نقل الجمال الأدائي من لغة إلى لغة . وأظهر كيف أن المعنى السامي يلتصق التصاقاً حميمياً بمبنىً سام . وهل كانت الترجمة ، في يوم من الأيام ، طريقاً إلى الخلود الأدبي ؟ الفكر كائن حي . متى صُبَّ في قالب ، صعب من ثم نقله إلى قالب آخر ، مع الحفاظ على بيانه وبلاغته . لقد كان ذلك دليلاً ، عندي ، أن الفكر لا يتحرك ، في مهده ، إلا بشكل لغة . مهما تعالى ، وشفَّ ، وتناهى ، في طبقات التجريد ، الرفيع ، فهو لغة منذ النبضة الأولى . من الصعب ، والحالة هذه ، إن لم يكن من المستحيل ، أن نقبض على فكر لا يكون لغةً . لا يتكلمن الفاظاً . لا يكون هذا اللسان أو ذاك . على فكر لا يُلفَظ وإن صمتاً .هذا

الفكر العاري افتراض لا واقع . هو مشروع فكر لا فكر صحيح . هو تخطيط فكر في سبيل أن يصبح فكراً تاماً . ولما كانت الفكرة تتميزُ بوحدتها ، فلا يمكن أن تكون هي وسواها في الوقت ذاته ، دون أن تفقد جوهرها الصافي ، فمن الواجب أيضاً أن تتميزَ بقالبها الأم . يعني أن اللغة الأولى ذات وحدة ، في الوقت نفسه ، فلا يمكن ان تكون هي وسواها ، في الآن ذاته . الترجمة وسيلة لنقل أفكار صائبة لا أفكار جميلة . ولكن الصوابية وحدها لا تكفي لتجعل الأفكار عظيمة . جبارة . خالدة . أيُّ عتال لا يستطيع أن يفكر تفكيراً صائباً ؟ وأن يعبر تعبيراً صائباً ؟ صوابية التفكير لا ترفع إلى مصاف العباقرة. لهذا أكاد أقول إن العبقرية هي قضية تعبير . الفن كله قضية تعبير . الإنسان الخالد كله قضية تعبير . من الخطأ تهوين التعبير واعتباره ثانياً في عالم الخلق . إن الذين حاربوا التعبير ، من رجالات الفكر ، لم يصلوا إلى غاية مقنعة ، إلا عن طريق التعبير. مثلهم مثَل الذين يحاربون الفلسفة بفلسفة من عندهم . مثَل الذين يحاربون الدين بدين من عندهم .

ودفعني حب الإسترادة من حياض الفلسفة فيممت وجهي شطر باريس . ذهبت وفي ضلوعي رغبة صادقة في العبِّ من ذاك العلم . وكنت لم أزل من المتحمسين لبرغسون . من المؤمنين بفحوى أقواله. هناك حدثت لي التجربة الثالثة ،التي أماطت اللثام أخيراً ، بصورة نهائية ، وساقتني إلى الإعتقاد التام بغائية اللسان القومي . أما تلك التجربة فهي جدّ عادية بحد ذاتها . عايشها دون ريب كل عربي اللسان طلب العلوم الكبيرة في رقعة الغرب . وهي تقوم على أنني ترجحت بضنك بين لسانين : العربي والفرنسي . لم أستطع أن أتحكم فعلاً في الفرنسية ،

على غرار أبنائها ، الذين يتكلمونها عفواً . ولم أستطع أن أحافظ على نقاء لغتي الأم ، في مناخ لا عربي ، يحيط بي من كل جانب .

رب معترض يقول : وأين المأساة ؟ أين المصيبة الشائكة ؟ أجل ! لا مأساة ولا مصيبة ، لو كنت من الذين لا يقدسون الحرف ، أو يتساوى ، عندهم ، الأسلوب الجميل والأسلوب القبيح . من الذين لا يأبهون لوَقف الكلمة الحلوة على الفكرة الصائبة .

لكنني من الذين أشهى الصناعات ، لديهم ، أن يتأملوا وجوه الكلام . أن يبدوا المعاني الكيسة بألفاظ كيسة . أن يتنوقوا للخاطرة الكريمة كرائم الألفاظ . المعاني الكبيرة تصان عما يهجنها من خسيس الجمل . لقد كنت ، وما زلت ، من الذين يغارون على البيان ، ويستنزلون البلاغة ، ويطاردون كل بديع في الألفاظ المعبرة .

ولعب في قلبي شيطان الغرور . قلت في نفسي : عليك بلغة الفرنسيس غايةً . هي فرصة مؤاتية لك . إنك تعيش بين ظهرانيهم . وتنساق في مضمارهم عن كثب . ليكن ذلك مدعاة في سبيل الغياصة على كرائم لسانهم . وهكذا كان . فاندفعت في مسالك اللغة الفرنسية.

هنا بدأت المأساة . لم أنتبه ، أول بدء ، أنني جنحت عن الواقع البشري ، في منزلق خاطىء . لقد طمس الغرور على بصيرتي. وأضلني جهلي بفلسفة اللغة . قلت : وما ضرني لو امتلكت لسانين حق الإمتلاك ؟ وركبت متن هذا العمل . أما النتيجة فكانت عكس المرتقب . جاءت سلبية من جهة اللسانين معاً . شعرت بأنني بعدت عن نقاء العربية فسليقتها الرفيعة في القلم . بعدت عن مجراها السريع في الأداء . ثم شعرت ، من جهة أخرى ، بأنني لم أدنُ من نقاء الفرنسية فسليقتها الرفيعة في القلم . لم أدنُ من مجراها السريع في الأداء.

وهكذا ترجحت مضنوكاً بين لسانين مبتورين فيّ . بعدت عن صفاء اللغة العربية . عن بداهتها في اللسان ، ورشاقتها في الكتابة . بعدت عنها لأنني هجرتها كتابةً وقراءةً ومشافهةً . واللغة الأنيقة تعق ، عند الأديب ، إذا أبطل مزاولتها . إن الكلمة المصقولة عزيزة الجانب. هي ذات عفاف لا تريد أن يتخدش . إنها غيرى . معنى كل هذا أن التحكم في اللغة الأم لا ينفصل عن التحكم في الطبيعة الأم ... أقصد في الوطن الأم أو في ما يذكّر الوطن . الإنسان لا يتعلم لغة أجداده ، كما يجب أن يكون ذلك ، إلا في وطن أجداده ، أو في ما هو مثيل لوطن أجداده ، من حيث المناخ الروحي . فمن أراد أن يتقن لغةً ما اتقاناً ، فيه زخم الألمعية والأريحية والعبقرية ، كان عليه أن يعيش بين ظهراني أبنائها الذين يتكلمونها عفواً . أو أن يحيط نفسه بشعب منها يتكلمها عفواً . اللغة حياة . وقد صادف أن انقطعت عن محيطي ، العربي اللسان ، فجفّت لغتي في العروق . واستسمك القلم بين الأصابع . وحرنت الديباجة الأنيقة . ثم غلظت . لقد أصابني الرصاص فوقعت في الأحبولة . لم أعد أديباً في لساني القومي .

أما الفرنسية ، التي خنت لساني من أجلها ، فلم أركب متن عفويتها ، أيضاً ، لأنني لم أستطع ذلك . بقيتُ خارج بهوها الفسيح. على أن الكد في سبيلها لم ينقصني . لقد كنت استحر بالنية الصافية ، والعزم الفتي ، كي أقطع رحابها ، وأصبح ذا سليقة فيها كسليقة أبنائها . لكنه حلم ضائع ، بل تشهٍّ مريض ، بل خيانة وجريمة . لم أعلم أن الإنسان ذو عفوية لسانية واحدة . ذو تاريخ واحد . وأرض واحدة . وأمة واحدة . لم أعلم أن هذه الآحاد الواحدة هي التي تُنفِذ الإنسانَ إلى الكثرة المتكاثرة . إلى المطلق . من القومية الخاصة نرتفع نحو الإنسانية الشاملة . لم يكن ممكناً أن أدرك عفاف اللسان الفرنسي ،

اي عبقريته ، ومهدي في بلاد الشرق . وارضي ، وسمائي ، وهوائي ، وشعبي ، وخلاني من بلاد الشرق . الانسان لا يكتب بأنامله . وانما يكتب بجسمه وبروحه . يكتب بماضيه وماضي قومه ؛ يكتب بمناخ الطبيعة التي يولد في احضانها . يكتب بهذا كله ، معاً ، الذي يكوّن وحدة العفوية . أبمقدوري ان اعاند منطق الحياة ؟ لقد بقيت قزماً حيال اقزم الفرنسيين لغةً . وهكذا علقت بين عفويتين ناقصتين ، عفوية لساني الذي ظللت انتسب له بأطراف كياني ، لا بصميمه رمةً ، وعفوية لسانهم الذي تنكّر لي حتى النهاية .

لا شك عندي في ان الذين يجهلون ما للكلمة من خطورة ماورائية تتساوى لديهم الاساليب التعبيرية . يتعادل قبحها وجمالها . هؤلاء ينظرون الى اللغة من وجه انها وسيلة . لهذا يهونون خطرها ، فلا تعود من اولى مقومات شخصية الانسان ، فرداً وقوماً .

لكن الاديب ، الذي يحس بعظمة اللغة ، بهول ألفاظها ، لا يقف هذا الموقف . اللغة عنده اكثر من وسيلة . هي غاية . اذ بدونها لا تكون الفكرة جميلة . وفكرة غير جميلة هي ليست فكرة . من هنا حرص الاديب على الديباجة ، التي تصبح لديه جزءاً من الفكرة ، بل الفكرة ذاتها . فمتى اسفّت الالفاظ ، أسفّت المعاني ، وأسفّت شخصية الانسان ، بل انسانيته .

ان الاديب يعلم ، تماماً ، ان عالم اللغات عالم صفاء ، ونقاء ، وعفة . عالم غاية لا واسطة . لهذا لا يرضى ان تعيش عدة لغات ، في لسانه ، تحت سقف واحد . لا مهادنة فيما بينها . لقد تصارعت الفرنسية والعربية في قرارة ذاتي . أجل ! لقد تعادلتا ، صرفاً ونحواً ، في اللسان والقلم . لكنهما لم تتعادلا عبقريةً . وهكذا فقدتُ عبقريةً لغتي ولم ادرك عبقريةَ لغتهم . اذ المهم ، عند الاديب ، ليس

التعبير الصائب ، بل التعبير الجميل . صوابية التعبير تأتي ثانية ً . جمالية التعبير تأتي اولا ً . وهذا لا يمكن حصوله الا في اللغة الام على ان لا تقبل في بيتها ضرة تحاربها .

لا اقصد بذلك ان الانسان عاجز عن امتلاك غير لسانه القومي . لكنه يبقى في درجة ٍ دون الكمال ... دون الخلق المبدع . واذا عاند شريعة الحياة ، واراد ان يتجاوز حد الوسط ، قامت القيامة بين اللسانين ، وتدنى مستوى الجمال في الاداء . الاديب الاديب لا يرضى بغير لسانه القومي تعبيراً عن سواتر قلبه . هو يشعر بان التعبير الانيق ، السريع ، لن يكون في غير لسانه . والعبقرية تستلزم التعبير الانيق ، والا شلّ زخمها ، وانحدرت في الدونية . ما لنا الا ان نقلب اوجه التاريخ لنرى حقيقة هذا القول . فما من اديب كبير ، ولا فيلسوف كبير ، استطاع ان يكتب اسمى افكاره ، في غير لسانه القومي . واذا فعل ، فاما ان يخونه الخلود ، واما ان ينتقل محوره الى الامة التي يكون الاديب ، او الفيلسوف ، قد تبنّى لسانها لغة ام له .

تجارب ثلاث في حياتي دارت كلها حول علاقة اللسان بالفكر . وقد اوقفتني على حقيقة اللغة فلم تترك عندي شكاً في ان للقلب الواحد لساناً واحداً . في ان العبقرية لا تنساق في غير عفوية لغوية واحدة . اعني عفوية اللغة الام . هذه العفوية – اذا ركلها المرء احتقاراً ، او اهمالاً ، او غروراً ، في سبيل غيرها – أماتت فيه زخم النتاج العالي ، واطفأت جذوة قوميته . لا عجب ، والحالة هذه ، ان كانت اللغة الام الهدف الاول لسهام الاجنبي ، الذي يرمي الى التحكم في المستعمَر . متى تحوّل الانسان عن لسانه تحوّل عن ماضي هذا اللسان وآدابه . تحول عن التاريخ الذي يحفظ له

صورة عفيفة عن حقيقة وجوده . الانسان كائن مجتمعي بالطبع . كائن لا بد له من بيئة بشرية تغمره ، ليدرك عن طريقها الجوهر الاكبر ، الذي هو الانسانية . ولا مجتمع بدون لسان يعكس مزاجه . اجل ! للمجتمع مزاج . فاذا استبدل المرء لساناً بلسان فانه يستبدل مجتمعاً بمجتمع . اذ اللغة ليست حفنة الفاظ مخلعة ، يمكن تركيبها اعتباطياً ، وتحليلها اعتباطياً . لجاز مثل هذا التركيب والتحليل لو لم تكن اللغة كائناً يعيش . لكنها حياة نامية .

لقد ابتلينا ، في هذا البلد ، بجهل فلسفة اللغة . ابتلينا باحتقارنا للعربية . باهمالنا اياها . بغرورنا ان سواها اعف ، وابهى ، وأفتى ، واقرب الى مقومات الحضارة الحديثة . أُسمِعنا هذه المعزوفات ، فابتلينا بعقدة التكابر حيال لساننا ، وبعقدة التصاغر حيال لسانهم . النتيجة ؟ صغرنا في انفسنا ، دون ان نكبر في انفس الحاكمين ، حتى صرنا لا ننتخي لبيان عربي ، ولا لبلاغة عربية .

لا ابالغ اذا قلت ان معظم مشاكلنا الاجتماعية سببه ذلك التنازل عن واحدنا الاحد . عن تاريخنا الواحد . عن لساننا الواحد . عن ارضنا الواحدة . عن تراثنا الواحد . عن ارادتنا الواحدة . وليس في العالم شعب يريد ادخال عفاف على عفافه . ان كل امة عزيزة الجانب ، أبية الخلق ، ثابتة الارادة ، تقدّم لغتها على لغة سواها . ولا تتناول اشياء الغير الا من بعد اشيائها القومية . اي من وراء حدودها الوطنية .

رجعت من بلاد الاجانب ملغوماً . لقد انجلت الحقيقة في عيني . وطلع فجرها في قلبي . وبان ضوؤها الكاشف . وعيت سبب العقد التي عانيت . فلم اعد اجهل لماذا عجزت ، وانا وليد ، عن التوفيق بين لسانين . لأن الذنب ليس ذنبي ولا هو فقد اهلية . انما انحت

يومذاك لناموس غير حق . غير عادل . لناموس لا يتلاءم مع الجبلة البشرية . اجل ! وعيت ما كنت أجهله . وعيت ان للقلب الواحد لساناً واحداً . شعرت بعد ايابي كم نحن بعيدون عن صلب الواقع . شعرت بان القيم مقلوبة في رأينا . ما يجب ان يكون هو غير الكائن . وما يجب ان لايكون هو الكائن . لقد اصبح الباطل حقاً فغدا الحق باطلاً . لقد ضللنا طريقنا . جهلنا ان مجدنا هو في تعزيز اللغة العربية . في تقديسها . وكان ان انحنيت على القلم ، اودع القرطاس ما رأيت من نور الحقيقة ، فكتبت « في فلسفة اللغة » .